محمد الجيزاوي

الدم والحليب

رواية

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر
من كتب ومجلات ومجلدات تابعونا

t.me/book100100

book100100

مكتبة

اليوم الأول

لستُ المُخلِّص الذي انتظره أحفاد إسرائيل، ولم أكُن يومًا المسيح الذي انتظره أتباع يسوع، ولا أنا المهديّ الذي انتظره المسلمون، بل كنت دومًا وفقط، حسّون.

أجلس اليوم في الهواء، يملأ نسيم الجبل صدري، وأنتعش بعيدًا عن جو الكهف الخانق وظلمته، منذ أربعين يومًا لم أغادر جدران الكهف؛ إذ حبسني قصف الشُهب المُنهمر، لولا «غلام» لمُتُّ جوعًا، الحمد لله أنَّ الكلاب لا ترفع رأسها للسماء. منعته من الخروج عندما اشتد القصف، خوفًا على حياته، وعندما طال نباحه الجائع، أدركت أني لا أحميه من الموت، فلو ظل معي لكان مَوتُنا معًا محتومًا، بينما لو خرج لربما مات، ولربما جاء بأفعى نتقوت بها فتنجينا معًا.

اندثرت أمم الأرض، ومَن بقيَ مِن الناس قتلته النيازك. منذ سبعين سنة وانهمارها لا يتوقف إلا أيامًا، حتى يخرج مَن كان مختبئًا، فكأنَّ خروجه قد رنَّ الجرس للسماء، فتستيقظ قاذفةً بالشهب، لتحرق كل مَن يمشي على قدمين. لعل غلام قد نجا لأنه يمشي على أربعٍ، ليته لم يمرض، فقد صارت حياتي وقفًا عليه، طيلة الأربعين يومًا وهو يطعمني،

حصريات مكتبة
تابع كل ما هو جديد وحصري على موقعنا الرسمي
www.maktabahh.blogspot.com

نأكل من صيده، ونشرب من خيط الماء المُتسرّب في جدار الكهف، ثُم نجلس معًا يؤنس بعضُنا بعضًا، تنير لي عيناه الوديعتان ثوب العتمة، وأُسليه بحكايات ألفين وسبعمائة سنة، كنت أدخر القليل من آخر حيّة صادها، أطعمته ما ادخرت وظلَّ بطني خاويًا، وعندما خرجت لأعمل عمله، لم ألمح صيدًا، نفعني الكلب ولم أنفعه. إذا كان هذا الجبل هو حقا جبل الرب، فلماذا ليس فيه عُشبة واحدة يجود بها؟! حتى نهاية الوجود لا تُبرر كل هذا القحط!

تبدل كل شيء منذ خَبَت الشمسُ فصارت بيضاء، تبعث ضوءها على استحياء، كأنها شمعة في الرمق الأخير، تمنح شيئًا من الدفء، لكنه لا يكاد يرد بردًا، والقمر المُحطم ما عاد لنوره من وجود. من رأس الجبل أرى بحر القلزم، دخانه المُنبعث من قلب الموج يُنذرني، يبدو أنَّ الأمر قد اقترب، لعلها سنوات وتُطوى صفحة الكتاب الكبير، بل لعلها أيامٌ قليلة لا سنوات.

ليس بحوزتي إلا صندوق أمي، أحمله معي منذ قرون بعيدة، وفيه كل هذه الأوراق وتلك الأقلام، لعلها كانت تنتظر لأمر ما، وها هو قد أتى، ظننت أنَّ أصابعي ستعجز عن كتابة حرفٍ، لكنها فعلت، وها أنا أكتب.

إذا أمهلني الجوع ولم يقتلني، وأمهلني الوجود ولم يندثر، فسأدوِّن الحكاية كلها، سأكتب كل شيء رأيته منذ ولدتني أمي في قرن الشمس بأرض اليمن، منذ ألفي سنةٍ وسبعمائة عام.

أنا حسّون ابن صفية بنت حزقيال بن ميمون القداح.

وأنا، حسّون بن عبد الله بن إسماعيل بن شمس القرشي.

«حزقيال» صانع الخناجر، هو جدّي لأمي. أمهر مَن صنع «الجنبيَّة» هم اليهود، وأمهرهم كان جدّي حزقيال. يهود اليمن يصنعون الجنبيَّات ولا يحملونها، تعاقبت الممالك وتغير كل شيء في اليمن، إلا اليهود، ظل مُحرمًا عليهم حمل الخناجر، فقط يصنعونها. قريتنا اسمها (الجدس)، يسكنها بضع مئات من اليهود، وقليل من المسلمين لا يزيدون على عشرة بيوت، لكن جُل الأرض كانت للمسلمين؛ إذ يكره أجدادي الزراعة منذ خلقهم الله، مهنتهم على الدوام كانت التجارة، وبعض الحِرف، مثل جدّي حزقيال صانع الخناجر.

www.maktabbah.blogspot.com

لم يكُن لجدّي من أبناء، سوى أمي «صفية»، ووحدها مَن كانت تعينه على عمله منذ بلغت الثامنة عشر من عمرها، وكان جدّي حينئذ في الأربعين من عمره، تجمع له الفحم في الموقد الكبير، وتنفخ على النار، وتُبرد الخناجر بعد حدِّها، كثيرًا ما كان جدّي يتركها لتعقد البيع مع مَن يأتون لشراء الجنبيَّات. كان التجار يأتوننا من أطراف محافظة (إب)، التي تقع فيها قريتنا، أو كما يسميها أهل إب (قرية اليهود)، وأحيانًا كانوا يأتون من (صنعاء) إلى بيت جدّي، لشراء خناجره. أبي كان ممن يأتون من صنعاء البعيدة، فوقعت أمي في قلبه، وأمي عشِقته.

«إسماعيل القرشيّ»، هو جدّي لأبي. أحدُ فقهاء (المالكية) في صنعاء، ورأس الشيوخ المُعلمين لقراءة القرآن برواية «الدوري»، حفظ أبي «عبد

الله» القرآن على يديه، ثُم أطلقه جدّي للتجارة، واختار أبي أنْ يتاجر في الخناجر، فاستقر خنجرُ أمي في قلبه حبًّا.

دومًا كانت تقول لي أمي: «كان أبوك زينة الرجال، كان كريمًا أمينًا، وكان جميلًا». غير أني لست أذكر شيئًا من كل هذا؛ إذ مات وأنا في الخامسة من عمري، لكن أمي لم تكذب يومًا، فصدقتها وأحببته. كثيرًا ما كنت أراها تبكي حين تخلو بنفسها؛ فأعرف أنَّ سحابة أبي تتجول بقلبها فتهطل بعينيها، فإذا رأتني كفكفت دموعها ونادتني: «تعال سأحكي لك عن أبيك». وكأنها كانت تحكي يومًا عن سواه!

عندما رآها أبي أول مرة، اشترى منها ثلاثين خنجرًا، لكنها أعطته ثلاثين وواحدًا، وقالت له: «هذا الخنجر فوق البيع هدية». لعلها لو لم تهدِه خنجرًا لما كنت أنا، عاد إليها أبي مرة بعد مرة ليشتري خناجرها، وينعم بالوصال، أحبَّ أبي اليهودية، وعَشِقَت أمي مُسلمًا، فأنجباني بين بين. على أطراف قرية الجدس وتحت زيتونة في بستان لا صاحب له، كان أبي ينتظر، وكانت أمي تذهب إليه، بالحُب باح لها، وبالحُب أسَرّت إليه، فتعاهدَا.

www.maktabbah.blogspot.com

رفض جدّي إسماعيل حلمهما، وقال: «لا يتزوج ابني من يهودية، هل حفّظتك القرآن لتأتي إلينا بواحدة من نسل القردة والخنازير وتتخذها زوجة؟!». ومثله رفض جدّي حزقيال، وقال لأمي صفية: «لن أُلقي بطعامي للكلاب».

تسللت أمي صباح يوم من البيت، ويممت وجهها قِبَلَ مدينة (ذي السفال) حيث ينتظرها أبي، حسَمَت الأمر وقالت له: «أبوك لا يريدني،

وأبي لا يريدك، فتزوجني يا عبد الله وأنا لك ما حييت». فقال لها أبي: «انتظريني هنا». ودخل إلى (المسجد الكبير)، فصلَّى الفريضة ثُم انتظر حتى فرغ المسجد من أغلب رواده، وجد رجلين يضطجعان ليستريحَا من الحر، فجلس إليهما وسألهما: «أتشهدان على زواج رجل مُسلم؟». تزوجَا، وعاد بها أبي. وعند أطراف قرية الجدس، تحت زيتونتهما المباركة، والشمس قد بلغت المغيب، قال لها أبي: «أدخل بكِ، هنا، والآن». فقالت: «افعَل». ففعل، حَبَلَتْ بي أمي.

كان أبي يذهب إليها مرة كل شهر، وعند الشجرة يلتقيان، أخبَرَته أمي أنَّ شيئًا ينمو بين الأحشاء فقال لها: «والله لن أخزيكِ، وسأخبر أبي وأباكِ بزواجنا، لن يُهينكِ إنسانٌ يا صفية». لم يكُن قد مضى على زواجهما إلا ثلاثة أشهر، وفَّى أبي بعهده الأول، فلم يُخزها، وأخلف وعدَه الثاني، فلم يُشهِر أمرَهما؛ إذ حبسه الجنود الإنجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد، واقتادوه إلى السجن بتهمة بيع السلاح إلى الخارجين على الغزاة.

قضى أبي في سجنهم سنتين وبضعة أشهر، عند أول يوم في محبسه، سجد لله ودعا دعوته: «يا رب، لا تفضح مَن أُحب». وعندما علمت أمي بسجنه ذهبت إلى المعبد وسجدت لـ «يَهْوَهْ» ودعت دعوتها: «يا رب، لا تفضحني بمَن أُحب». وفي رحم أمي دعوتُ مؤمِّنًا عليهما فقلتُ: «يا رب، استجب». فاستجاب.

خمسة أشهر مرت على سجن أبي، كانت تموت أمي فيها كل يوم فزعًا من افتضاح أمرها بتكور بطنها، لكنني حفظت سرها، فلم أكبر بالرحم، ظلَّ بطنها ممسوحًا ومشدودًا كعذراء لم تعرف الحَبَل، حتى إنها في شهرها الثامن ولم يتغير فيها شيء، إلا انقطاع الطمث، واجتياح الآلام لبطنها في بعض الليالي. خاف عليها جدّي حزقيال، فأخذها إلى عجوزٍ من عجائز اليهود بالجدس، امرأة كانت تطبب النساء ولديها ترياق لكل وجيعة. سألت العجوز أمي:

- مِم تشتكين يا بُنية؟

- بطني يا خالة.

وضعَت العجوز يدَها على بطن أمي، وغرزت أصابعها الطويلة أسفل السُرة، حتى شعرتُ بوقع أصابعها على رأسي داخل الرحم، اضطرب وجه العجوز، ثُم أمرَت جدّي بالخروج، فخرج. سألت أمي عن أمر حيضها، فقالت أمي:

- لم يأتِني الطمث منذ ثمانية أشهر.

- أمتزوجة أنتِ يا بنت؟

- لا.

- هل وقع عليكِ رجلٌ من يهود الجدس؟

- لستُ عاهرًا يا خالة!

- أنتِ حُبلى، وأصابعي لا تكذب أبدًا.

اضطربت أمي، فضَرَبتُ جدار الرحم لأقول لها: «اثبُتي». فثبتت، ثُم قالت للعجوز:

- تحفظين سرّي يا خالة؟

- أحفظه بدمي.

- عرفتُ رجلًا، كان يأتينا من صنعاء ليشتري خناجرنا، أحببته، وحبلت منه.

- أيهودي هو؟

- لا، بل مُسلم.

- منذ متى واقَعَكِ؟

- ثمانية أشهر.

- ما أحسبُ الذي في بطنكِ إلا شيطانًا، أو آية من آيات «يَهْوَهْ»، لكن كيف يرسل الله آياته بالزنا؟!

- لم أزنِ يا خالة، تزوجته قبل أنْ يواقعني.

- يا قدوس! إنَّ لكِ لشأنًا أعظم من زوال الهيكل، ثمانية أشهر ولم يكبر، كالدودة في بطنكِ يلتصق! عودي إليَّ مرة بعد مرة، ولا تُخبري أباكِ بشيء، فلن يُولد هذا الذي في بطنكِ بعد شهرٍ أبدًا!

عامٌ كامل وأمي تزور العجوز، حمل الأسرار ثقيلٌ على نفس الوحيد، فلم تَعُد تذهب إلى العجوز لأجل آلام بطنها، بل لأنها الوحيدة التي علِمت بسرّها. كل مرة تتحسس العجوز بطن أمي وتقسم بغير حاجة: «ورب هارون إنَّ في بطنكِ آيةً». كذبت العجوز، لم يكُن به سواي، أنا حسّون التعيس، مزحَة القدر وطرفته السخيفة، التي ظل يرددها ألفيّ سنة وسبعمائة عام، دون أنْ أضحك لها.

لم تحتمِل العجوز غرابة الأمر أكثر من ذلك، فذهبت إلى المعبد، وأخبرت الحاخام «باروخ» بسرّ أمي. بعد غروب الشمس كان الحاخام في بيت جدّي حزقيال، سأله بغير مقدمات:

- كيف حبلَت ابنتكَ يا حزقيال؟!

فزع جدّي لهول السؤال وقال للحاخام:

- لو قالها غيرك لغرزتُ خنجرًا بقلبه، ابنتي طاهرة وليست زانية.

- لكن العجوز أخبرتني إنها حُبلى منذ سنة وثمانية أشهر.

- خرفُ العجائز مفهوم، لكن كيف يُصدق الحاخام مثل هذا الجنون؟! لو صدقت أنَّ ابنتي زنت، فكيف تُصدق أنها حُبلى منذ سنة وثمانية أشهر، ولم تلِد؟!

أبَى الحاخام إلا أنْ يراها بنفسه، فدخلَت عليهما أمي، وقالت وهي مرفوعة الرأس حازمة كالسيف: «لستُ زانية، ونعم أنا حُبلى، حملتُ به من نكاح لا من سفاح». صاح جدّي: «تزوجتِ المُسلم؟!» أجابت أمي: «نعم».

حصريات مكتبة
تابع كل ما هو جديد وحصري على موقعنا الرسمي
www.maktabahh.blogspot.com

أصبحتُ ابن الحبيسين، أبي في زنازين الإنجليز، وأمي في بيت جدّي الذي حبسها ليمنعَها عن حبيسٍ! لم يُصدق أنها حُبلى، فمَن هذه التي تحبل سنة وثمانية أشهر بغير وضع؟! ظن أنها تخدعه، ولم يكترث لكلمات الحاخام بأنَّ في بطنها آية لليهود. أرسلَها يَهْوَهْ. كان كل هَمّه ألا يأخذ ابنتَه يمنيّ مُسلم، تمامًا كما كان همُّ جدّي إسماعيل ألا ينكِحَ ابنه يهودية على غير دينه. لكن الكتاب قد وقع، واستقر السهمُ بقلبِ القوس، فلم يمنع الدينان ما قرره صاحب الدينيْن.

خرج أبي من سجنه الذي طال لسنتين وبضعة أشهر، وهو أكثر حزمًا وأطول حزنًا، فعلَت به السلاسلُ ما تفعله بالرجال، منحته شيئًا وسلبته أشياء، وكان مما منحته: مَضَاءُ العزم، ومما سلبته: الصبر.

أدرك جدّي إسماعيل أنَّ ولدَه لم يَعُد ذاك الذي يمكن حملُه على شيء لا يريده، فلم يمنعه عن مراده، ولم يخضع له أيضًا، جدّي لا يتراجع لكن يمكن أنْ يغيّر موقعه، رضيَ بزواجه من صفية، ورفض أنْ تسكن ببيته. اشترى أبي منزلًا صغيرًا في (غرقة القليس) وجهَّزه، ثُم ذهب إلى الجدس وقد حزم أمره، قال لجدّي حزقيال: «صفية زوجتي، منحتني نفسها برضاها، وأنا عليها أمين، فإنْ منعتني زوجتي شكوتُكَ لشيوخ العشائر، ولستُ بالرجل الذي يخذل أهل بيته». كان جدّي حزقيال يستطيع أنْ يمنعه إذا شاء، لكن الكلام قد كَثُر، ودخان الأعراض سريعُ التطاير، أراد أنْ يُخرس الألسنة، بإعلان ابنته زوجة للرجل الذي يتهمونها به، فرضيَ بالزواج. جهَّز ابنته بثوبين للشتاء ومثلهما للصيف، وقال لأبي: «لكل عروس مهرٌ، فأين مهر ابنتي أم أنكم لا تُمهرون بنات اليهود؟!». فأمهَرَه أبي أوقية من الذهب وأوقيتين من الفضة، عملًا بما أوصاه به جدّي إسماعيل قبل سفره حين قال له: «أمهِر زوجتك ولا تفضحنا عند اليهود».

بعد إعلان العُرس مكث أبي في بيت جدّي حزقيال ثلاثة أيام، يستقبل فيها المُهنئين، وكان الحاخام باروخ على رأس الوافدين، دخل باروخ على أبي وهو جالس مع جدّي واثنين من شيوخ اليهود، فهنَّأ الحاخام جدّي، وتحدَّث مع الشيخيْن في صغائر الأمور وشوارد الأخبار، دون أنْ يُكلم أبي كلمة واحدة، جيء بالطعام فأكل مع الآكلين، يأكل لقمة ثُم ينظر حوله، كأنه يبحث عن غائب، يجول ببصره في كل مكان، وتستقر عيونه على كل الوجوه إلا وجه أبي، وبعدما رُفِعَ الطعام ونزل الشراب وانتهت الوليمة، أتاهم جدّي بوعاء وسطل ماء، يصب منه على أيديهم، فكان باروخ آخر من غسل يديه، وبينما يمسك بالمنشفة، ودون أنْ يرفع بصره عن أصابعه التي يمسحها واحدةً بعد أخرى، سأل بصوت خفيض كأنما يُحدّث أصابعه: «هل حقًّا حمَلَت منك صفية؟». احمر وجه أبي وطفح الغضب من عيونه وأجابه:

- وما شأنُكَ بهذا؟

- كل أبناء اليهود عيالي، وشأنهم شأني، فأخبِرني، أحَبَّلتها؟

- ذاكَ أمر يعلمه الله، والعربيّ لا يُطلِع الغرباء على سرّ أهله.

- اعلم يا بنيّ إذًا، إنَّ ما في بطنها إنما هو يهوديّ، ولأجل اليهود جاء، والولدُ لأمه.

- بل الولدُ لأبيه، ولستُ آبه لأمرك ولا يُلزمني قولك، أما صفية فهي على دينها ما شاءت، فلا أحمِلُها على ما تكره ما حييت.

ذهبَت أمي إلى غرفة القليس؛ حيث البيت الذي أعدَّه لها أبي، زارتهما جدّتي «رضية» لتبارك العروس، بشَّت لها وحنَّت عليها وامتدحت ملاحتها: «ما أجمل بنات اليهود، أحِبّي ولدي يا ابنتي فأُحبك». ولم تُحب أمي يومًا سوى أبي، فأحبَّتها جدّتي.

بعد ثلاثة أيام، ارتفع بطنُ أمي واستدار، اختبأتُ في رحمِها سنتين وسبعة أشهر، ثُم اكتملتُ بثلاثة أيام، حسبه أبي أنه مرض ألمَّ بها، وانتفخ بطنها على أثره، فقالت له أمي: «لم يرتفع بطني بالمرض، بل هو السرُّ الذي ستَره الله علينا، ثُم نفخَه في بطني فاكتمل بالأمن». لم يخلُ قلب أبي من الظنون، تنازعت الثقة والريبة في قلبه، قد أخبَرَته أمي قبل سجنه إنها حُبلى فصدقها، ودعا لها بالستر في محرابِ السلاسل، لكنها دعوة مَن يعلَم أنه لن يُستجاب له، وبعدما مرّ شهر وراء شهر دون أنْ يبلغه في محبسه خبر حملٍ ولا وضعٍ، أصبح غالب ظنه أنَّ أمي توهَّمت الحمل ولم تستوثق، خرج من السجن وأعلن زواجه منها وأخذها لبيته في غرفة القليس، وهو لا يُصدق أنها كانت حُبلى، رغم أنها أقسمت على ذلك غير مرة، فبهتَته استدارة بطنها في ثلاثة أيام، ثُم وضعُها في اليوم السابع من دخوله بها في غرفة القليس، ساعتها علِمَ أنَّ دعوة السجن قد أصابت أُذنَ السماء، لكن جدّي إسماعيل لم يصدق الأمر كله، قال لأبي:

- امرأتك زانية، حَملَت من غيرك ووضعَت بفراشك، طلّقها يا بُنيّ.

- بل هو ولدي يا أبي.

- كنتَ في سجنكَ سنتين وبضعة أشهر ولم تقربها إلا منذ أيام، فمِن أين جاءت به؟

- مني يا أبي، دخلت بها قبل أنْ أُسجَن، ودعوت الله أنْ يستُرها، فستَرها.

- أتحسب نفسك نبيًّا يُجري الله معجزاته على يديك؟! بل فَجَرَتْ بنت اليهود وألصقت بك نطفة رجلٍ آخر، فافعل ما أمرتُك، وطلّقها.

لم يكُن جدّي بحاجة إلى سبب جديد ليكره أمي، ولم يقف ولو لمرة واحدة ويسأل نفسه كيف استدار بطنُ أمي في أيام ثلاثة؟! ولو نادى مُنادٍ من السماء بطهارتها، لما صدق جدّي النداء، ففي قرارة نفسه أرادَ أنْ يُكذبها. قطَعَت ولادتي كل طريق بين أبي وأبيه، نبذَ ابنه ولم يزره قط، ومنعه من دخول بيته، فكانت القطيعة التي لم تنتهِ إلا بموت أبي.

وحدها جدّتي آمنت بحكايتهم، آمنت بغير دليل ولا برهان، لعلها صدقت حكاية أمي، لتخفف عن أبي قسوة أبيه. صبرَ أبي على تلك القطيعة ولم يخذل صفيتَه، أخبَرَتني أمي إنه كان يشتاق لأبيه، فيذهب إلى المسجد في عتمة الفجر وينتظر حتى يدخل جدّي في صلاة السُنة، فيجلس أبي قبالته ليُشبِع عينيه من وجه أبيه، ثُم يعود لأمي دامعًا، فتضمُّه بين جناحيها، وتقول له: «أنا أمك وأبوك يا حبيبي». فيبكي على صدرها حتى يطمئن.

ثلاثة أشهر مرّت على مولدي، ولا يعلَم أحد مِن الناس أنَّ ثمة وليدًا بالبيت، لم يمنحني أبي اسمًا، ولا سألته أمي يومًا: ماذا نُسمّيه. كأنهما يترددان في الإقرار بأنَّ ولدًا مكث برحم أمه سنتين وسبعة أشهر. بقيتُ نكرة، حتى كانت ليلة استيقظ أبي فيها فزِعًا، فضمّته أمي وسألته:

- ما الذي أفزعك؟ أرأيت حلمًا أم ماذا أصابك؟

- نعم رأيت، رأيتُ نفسي في أرض بيضاء لا يحدها شيء ولا تقطعها أودية ولا جبال، لا صخور فيها ولا رمال، لا شيء سوى أرض بيضاء كالثلج لا نهاية لها، وأنا أقف وحيدًا وفي يدي سيفٌ لا مقبض له، ثُم رأيتُ جيوشًا لا حصر لها تحيط بي، كأنما انشقت الأرض عنهم، يزحفون نحوي كالسيل، ولا أدري مِن أين أتوا، ولا لمَ يقاتلونني! كانوا من العرب والعجم، بيضٌ، وصُفرٌ، وسودُ الوجوه، من كل جنس كانوا. أحاربهم وأنا أمسك بالسيف الذي لا مقبض له، فأدمَى حدُّهُ يدي. ثُم نزل المطر وأنا أقاتل، لم ينزل بالماء، بل بالحجارة، فقتلت الحجارة كل الجنود، وضربني حجر مثلهم، فسقطتُ، وسقط السيف من يدي، لكنه لم يقع، بل غُرِس بالأرض مُنتصبًا وحده في الميدان الفسيح، ثُم صحوت من حلمي.

- عجيبٌ حلمك، ما تأويل ذاك يا عبد الله؟!

- الولد سيفُ أبيه، وأنا أهملتُ السيف فلم أصنع له مقبضًا كي أمسكه بيدي، آن لنا أنْ نجعل للولد اسمًا يمشي به في الناس يا صفية.

- سمّه إذًا.

- بل أنتِ يا صفية مَن تُسمّينه، لا أحد أَولى به منكِ.

ابتسمَت أمي كأنها كانت تنتظر وقد أعدَّت للأمر عُدَّته من قبل، فقالت:

- أُسمّيه حسّون.

- حسّون! ولِمَ هذا الاسم الغريب؟!

- عندما كنتَ في محبسك، كنت أذهب إلى البستان الذي جمعنا، فأمسح على جذع الزيتونة التي كانت تظللنا وأبكي، وفي كل مرة بكيت فيها، كان يأتي طائرُ الحسّون فيحط على شجرة الزيتون، ويغرّد لي حتى أبتسم، فإذا ابتسمتُ طار، وإنْ عدتُ للبكاء عاد ليغرّد، فقلتُ له: إنْ كان ما في بطني ولدًا فسأُسمّيه حسّون، فنشَر جناحيه وحطَّ فوق رأسي.

www.maktabbah.blogspot.com

- إذًا هو حسّون يا صفية.

صرتُ «حسّون»، مثله أقتاتُ على بذور الشوك، الرياشُ الحُمْر حول عنقي تكسوني بلون الدم، وذيلي أسود بلون تتابُع الأحزان، وبطني أبيضُ كصفحات أيامي المتشابهات، أصابت أمي حين سمَّتني باسمه، وأصابَ أبي حين رضيَ به، ومعهما أصابني القدر.

لم يَعُد أبي يتاجر بالجنبيَّات، لكن أمي لم تعدم حيلة؛ إذ أصبحت تصنع السلال كأحسن ما تكون الصناعة، ويبيعها أبي في السوق الذي يُنصب قرب (قصر السلاح) كل جمعة، تبدأ أمي عملها يوم الأحد، ويساعدها أبي في تضفير الخوص وفرد الأعواد، وتنتهي منها ليل الخميس، وتستريحُ السبت فلا تصنع فيه أي شيء، شأن اليهود. عندما اشتد عودي وبلغت السير على قدميّ، أصبح أبي يأخذني معه إلى صلاة الجمعة في (المسجد الكبير) بصنعاء القديمة، فأصلّي معه ثُم نعود إلى السوق، وفي الجمعة التي تليها تأخذني أمي إلى حيّ (قاع اليهود) لنذهب إلى المعبد فأصلّي معها. اختلَط الدينان في قلبي، فلم أعرف يومًا مَن أكون، حسّون ابن صفية، اليهوديّ كأُمه؟ أَم حسّون بن عبد الله، المُسلم كأبيه؟

عندما بلغتُ الخامسة مات أبي، ومعه ماتت الحياة في قلب أمي، وقف عالمها على سنوات من ذكرياته، فظلت تذكُره حتى لحقت به بعد سنوات طوال.

في ليلته الأخيرة، وبعدما عاد من صلاة العشاء، ضمّني إلى صدره، وظل يردد: «أنت ابني وأنا أبوك، لا تصدقهم إنْ طعنوا بك، سيجعل الله لك أمرًا يا ولدي، أنت ابني وأنا أبوك». ثُم بكى كثيرًا واشتد عناقه

لي، وأنا مُستسلمٌ لضمّةٍ أخيرة. أشفقَت عليه أمي وقالت له وقد أدركت مخاوفه: «مدَّ الله في عمرك يا حبيب، فإنْ كان حسّون سيفك فأنت درعه الحامي». لكن الدرع قد انكسر ولم يَعُد لي ما أتترس به. لم ينَم أبي ليلته، ظل يتقلّب كثيرًا في فراشه، ثُم قام وصلَّى ركعات يقيم بها الليل لعل الصلاة تريحه، ثُم أخلَدَ إلى فراشه، ضمّته صفية إلى حضنها، فمنحها آخر قطرة حُبٍّ في روحه، ثم وضع رأسه على صدرها فنام، ولم يَقُم.

كسرَ موتُ أبي قلب جدّي، جاء إلى بيتنا الذي انقطع عنه خمس سنوات لم تطأه قدمه، والآن جاء ليزور ولده ميتًا، غسَّله وكفَّنه، ولم يرَني، منذ مولدي وهو يأبَى أنْ يراني. صلُّوا عليه في الجامع الكبير، المسجد الذي كان يدخله أبي وهو يحملني على كتفيه، دخله اليوم وهو محمول على أكتاف الغرباء، وأنا أجلسُ في زاوية بآخر المسجد أراقب جثمانه تتلقفه الأيادي، وقفوا يكبّرون أربعة تكبيرات على أبي المُسجَّى بين المحراب وأول صفوف المُصلّين، لآخر مرة أراه، وهو في كفن أبيض يرقد ميتًا، وفي بياض أعمى أعيشُ منذ قرون، ما زال بياض كفنه يخدش جدران ذاكرتي، ذاكرتي التي لم تحمِل وجهه وحملَت كفنه. حملوه إلى مقبرة المدينة ودفنوه، ومعه قلب أمي.

أصبحت جدّتي رضيّة تزورنا مرتين كل أسبوع، تحمل معها الكثير من الطعام، وتترك شيئًا من المال يُعين أمي على الحياة. كانت تُقسم كل مرة إنَّ جدّي إسماعيل هو مَن أرسلها لكن المرض والشيخوخة يحجبانه عن زيارتنا، وكانت أمي تقبل منها وهي كارهة لعطيته، لعلها لم تكُن

تريد قطع حبل أبي عن ولده، ليظل للغصن جذورٌ تمدّه بالحياة. طلبت جدّتي أنْ تأخذني معها إلى بيتها، لأزور جدّي. اضطرب قلب أمي التي لم تفارقني ساعة واحدة منذ مات أبي، ولم تُدرِك غاية جدّتي التي رأت في وجهي شبهًا بأبي لا تخطئه العين، فأرادت أنْ تحمل إلى الجد الدليل على أني حفيده.

أصاب تدبير جدّتي غرضه، حين رآني جدّي إسماعيل أصابه الذهول، وتسمّرت قدماه، وجدّتي تقول له: «انظُر إليه، أليس الوجهُ وجهَ ولدك؟». ركع جدّي على ركبتيه وضمّني إلى صدره وصوته يتهدج بالبكاء، يمسح على رأسي ويتمتم: «هو ولدُه، من صُلبه وصُلبي، أنت ابن الحلال يا بُنيّ، غفر الله لي، لن أتركك بعد اليوم». آمن بي جدّي، وصدَّق ولده بعدما سكن القبر! وعرف أنَّ أمي قد حبلت بي، لكن ليس كما تحبل النساء، فأصبح يقول كما الجميع: إني آيةٌ من آيات الله أرسَلَها.. لكن للمُسلمين، لا اليهود.

ظلت أمي تصنع السلال وتبيعها بسوق قصر السلاح، كان الناس يشترون سلالها بحاجةٍ، وبغير حاجة. أهل اليمن طيبون، لم أرَ قلوبًا أكثر منهم رقّة بين العالمين على امتداد عمري الطويل، كانوا يعلمون بترمُّل أمي، فيأتي أحدهم ليشتري سلّةً، ولا يفاصلها في ثمنٍ، وأحيانًا يشترون الحلوى ويقدمونها إليَّ، هكذا كانت تفعل النساء كلما رأينَني بجوار أمي ألهو بين السلال.

في حياة أبي كانت أمي تذهب يوم الجمعة إلى المعبد، لكنها بعد وفاته لم تَعُد تذهب إليه إلا يوم السبت، حتى لا يفوتها السوق. أصبحت أمي تُغطي رأسها في المعبد وخارجه، تستره في المعبد مراعاةً لأمر التوراة، وتستره في الطريق مراعاةً لغيرة أبي، صارت أكثر صونًا لغيرته وهو في قبره. لم أكُن أحبُّ اللعب في المعبد مثلما كنت أفعل في المسجد مع أبي، فكنت أتسرب بعيدًا عن عيني أمي، وأتابع صلاة الرجال الذين يؤدونها وهم جلوسٌ على الأرض، جذوعهم تهتزّ إلى الخلف وإلى الأمام؛ فتتراقص ضفائر الشعر مع حركتهم الغريبة، لم أكُن أعرف لماذا كل الرجال في المعبد تتدلَّى ضفائرهم مجدولة! كنت أحسبهم أحيانًا نساء بلحى، وأحيانًا رجالًا لكن بضفائر.

لم أفهم قط ما يرددونه في المعبد من تلاوات، كما لم أفهم ما كان جدّي إسماعيل يحفّظني من القرآن، كما لم أفهم لماذا يتحدَّث الله

بلسانين مختلفين، وكلاهما صعب! عبرانية في المعبد، وعربية في المسجد، وأنا بينهما أردد، أردد ولا أفهم.

عندما كانت أمي تسهو عني بتضفير السلال، كنت أتسلل خارج المنزل إلى (القُلّيس)، تلك الكنيسة التي أقامها «أبرهة الأشرم» ليصرف العرب عن حجّ الكعبة إلى كنيسته، ثُم سار بالفيل ليهدم كعبة العرب، فرجمه الله من السماء بحجارةٍ تحملها الطيور، هكذا حفظت حكاية الكنيسة التي قصّها عليّ جدّي إسماعيل وهو يحفّظني «سورة الفيل». ومنذ قصّها عليَّ وأنا أخاف من الطيور رغم أني من جنسهم، حسّون. أُخبئ رأسي وأختبئ كلما رأيت طيرًا مُحلّقًا، خشية أنْ يرجمني بحجر. لم يَعُد هناك من الكنيسة شيء، أي شيء، ليس هناك سوى حفرة كبيرة مستديرة في عمق الأرض، تنخفض عشرة أمتار، ويحيط بها سياج من الحديد، نَمَت بقاعها شجرة لا ثمر لها، وكثير من القمامة التي كان يلقيها سكان حارتنا في حفرة الكنيسة البائدة. لا أعرف أكان غرضهم إهانة كنيسة صاحب الفيل، أم لأنه المكان الوحيد المناسب للتخلُّص من زبالات المنازل؟ كان هناك سلّم من الحبال يتدلّى من سياج الحديد، إلى عمق الحفرة الكبيرة، كثيرًا ما كنت أنتظر غفلة المارّين وابتعادهم، فأنزل مُمسكًا بالحبل إلى عمق حفرة القُلّيس، أختبئ تحت الشجرة نصف النهار، لا أفعل أي شيء هناك. كنت فقط أحبُّ أنْ أختبئ من العيون التي لا تأبه لي، ولا يسعى أصحابها لمطاردتي، الاختباء بذاته كان يمتّعني، وعندما يعضّني الجوع أصعد وأعود إلى البيت.

سنواتٌ وأنا لا أكفُّ عن عادتي تلك، حتى بلغت العاشرة. تحججت يومًا لأمي بأني مُتعَب، ولا أقوى على الذهاب معها إلى السوق، فلما ذهبت أمي، جلستُ بالبيت ساعة فضربني السأم ولم أجد ما أفعله إلا الذهاب إلى القليس. نزلت ونمتُ تحت الشجرة حتى العصر، فرأيتُ في نومي حلمي العجيب: رأيتُ نفسي أقف وسط الكنيسة وقد عادت كما كانت، لها بابٌ مرتفعٌ موشّى بوجوه أُسُودٍ مُذهّبة، وفي وسط الباب صليبٌ كبيرٌ أطرافه مُطعّمة بالياقوت الأحمر. فتحتُ الباب ودخلتُ إلى البهو الكبير، فوجدتُ تماثيل من الفضة لامرأة وجهها طيّب ووديع، تحمِلُ على ذراعيها طفلًا، تماثيل كثيرة للمرأة نفسها كانت تنتشر أمام الجدران، وفي المِحراب كان تمثال يقف وحيدًا على هيئة صليب يحمل رجلًا من الذهب على رأسه تاج من الشوك، ملأني الخوف من هيئة المصلوب المُتوّج بالشوك، فرجعت إلى تماثيل المرأة الطيّبة، ووقفت أمام أحدها. كانت تقف مبتسمة تمدُّ يديها، كأنها تدعوني إلى حضنها، ذهبتُ إليها، فتحرك التمثال. ارتعبتُ، ورجعتُ إلى الوراء، فتقدمَت نحوي باسمةً ومسحت على رأسي وقالت: لا تخف. ثُم أخذت بيدي ومشت بي خلف تمثال المصلوب، ثُم فتحت في الأرض بابًا يُفضي إلى سرداب طويل تنيره الشموع، مشيت معها فكان بآخر السرداب باب مُغلق، فتحت المرأة الطيّبة الباب ودخلت، فدخلتُ خلفها؛ فإذا بقاعة كبيرة وبداخلها ثلاثة رجال يقفون متجاورين خلف مائدة مرتفعة من الرخام، أمام كل واحد منهم كأس مملوءة، وعلى طرف المائدة الآخر كأس فارغة. فقالت لي المرأة: هؤلاء موسى ويسوع ومحمد، فانظر أي كؤوسهم أحبّ إليك فخُذه وصبَّ منه في كأسك.

سألتُها: وماذا في الكؤوس؟ فقالت: تلك كأس موسى، مُترعة بالدم، آيته التي ضرب بها أنهار فرعون، وهذه كأس يسوع، ملأى بالخمر، أول آياته التي جاء بها حين أحال الماء إلى خمر في عُرس قانا الجليل، وهذه كأس محمد، مملوءة باللبن، أحبّ الشراب إليه وآية الفطرة البيضاء في أُمّته. أما هذه الكأس الفارغة فهي كأسُك أنت. صُبَّ فيها ما تشاء من شرابهم، واشرب. كان وجه موسى عابسًا، يبثُّ الخوف في نفسي، عيونه حازمة مُسدّدة نحوي، شعرتُ بالخوف، ولم أستطع تجاوز كأسه خشية أنْ يغضب، فأمسكت كأسه، وصببتُ من دمها في كأسي. ثُم نظرتُ إلى يسوع، وجهه طيّب وديع، وفي عينيه شيء من الدموع، أحببتُ ملامحه الطيبة، لكنني لم آخذ شيئًا من كأسه، وقلتُ لن يغضب مني، فهذا الوجه لا يمكن أنْ يغضب صاحبه، فتجاوزته. ثُم ذهبتُ إلى محمد، فابتسم لي وابتسمتُ له، وجهُه يحمِل وداعةَ وجه يسوع، لكنه أكثر حزمًا منه، ويحمل صلابة وجه موسى، لكنه أقل قسوة منه، أعجبني أنه جمَع بينهما ثم لم يكُن مثلهما، فأخذتُ من كأس اللبن وصببتُ في كأسي، ثُم شربت. بكت المرأة الطيبة، وقالت: شرِبتَ من كأسيهما، ولم تشرب من كأس ولدي. أسِفتُ لحزنها ومددتُ كفي لآخُذ من كأس يسوع، لكنَّ يدَيّ تيبّست، وقدَمَيّ تجمّدتا، فلم أستطِع حراكًا، ثُم سقطتُ على الأرض أنتفضُ كالمصروع. استيقظتُ من حلمي وأنا على تلك الحال أنتفِض، ولم أعُد إلى حفرة القليس بعدها قط. لكن ما زال في جسدي دم اليهود، وحليب المُسلمين، منذ سبعة وعشرين قرنًا يجريان بعروقي، ويصطرعان.

سألت أمي ذات مرة: «مُسلمٌ أنا أم يهوديٌّ يا أمي؟». فتبسّمت بسمَتها الصافية وقالت: «أنت حسّون، والحسّون طائرٌ لا يأسره عشٌّ، يسكن الأغصان حينًا، ثُم يُحلّق في السماء، لم يَمنعني أبوك قط حين كنت آخذك إلى المعبد، ولم أطلب منه يومًا ألا يأخذك إلى المسجد، لم نتفق على شيء، لكننا دون كلام عقدنا عهدنا بأنْ تملأ كأسك بما تشاءه أنت». أدهشني كلامها عن الكأس وملئها، حتى حسبت أنها عرفت بحلمي، فالأمهات يعرفنَ دومًا كل شيء.

مكث جدّي إسماعيل في صنعاء بعد موت أبي، قرابة خمس سنوات، ثُم قرر السفر إلى الجنوب لضيق العيش في الشمال، كانت كراهيته للإقامة في ظل الإنجليز، تُرُدّه دومًا عن الذهاب إلى الجنوب، كثيرًا ما كان يقول لي: «بين كُرهين أختار، إما أنْ أبقى في الشمال تحت حكم «الزيود»، وإما أنتقل إلى الجنوب تحت حكم الكفار، ولا حول ولا قوة إلا بالله». لكن ضيق الرزق وكثرة القلاقل في الشمال رجّحت في النهاية كفّة الكفار، فغادر جدّي إسماعيل إلى الجنوب. لم تقبل أمي بالذهاب معه وتَرْك بيت حبيبها، وفي النهاية حمَلَها على الرحيل ما حمَل جدّي، الخوف. كان الإمام «يحيى» حاكم اليمن يرى أنَّ اليهود أهل ذمّة، واتخذ في شأنهم قرارًا أرعب أمي وخلع قلبها؛ إذ قرر أنْ يأخذ اليتامى من أطفال اليهود

إلى معسكرات تقيمها الدولة لتربية اليتامى، وحُجّته أنَّ كل مولود يُولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه، وكأنَّ أبي لم يكُن مُسلمًا!

حزمَت أمي أمرها، أغلقت باب البيت بالسلاسل، وأخذتني تحت جنح الليل هاربةً من غرقة القليس، إلى موطن البعث الأول، فكانت هجرتي الثانية. فمِن الجدس إلى صنعاء القديمة في رحم أمي، ثُم من صنعاء إلى الجدس مرة أخرى، في رحم الخوف. استقر مقامنا في الجدس مع جدّي حزقيال، الذي ينتظر آية اليهود التي جاءت بها ابنتُه.

تقضي أمي يومها في عزلة مُحكمة، لم تَعُد تساعد جدّي في صنع الخناجر، كما كانت تفعل وهي صبية. صمتها الطويل لا يقطعه شيء سوى رحلتها التي تقوم بها كل يوم إلى بستان مهجور في أطراف القرية، تجلس تحت زيتونة، تبكي وتبتسم، تنطفئ وتشتعل، كثيرًا ما كانت تأخذني معها، لكنني لم أسألها يومًا عن سرّ المكان، لم أكُن أسأل عن شيء، غير أنها أخبرتني قصة الحب وحكاية الشجرة، فسمعتُ لها ولم أُعقّب.

طلبتُ من جدّي حزقيال أنْ أساعده في عمله، فرحَ بي، وأدرَك أنَّ لشجرته ثمرةً تدل على أنها حيّة، فكان يمنحني أسرار صنعته دفعة واحدة، كأنه على عجَلةٍ من أمره، وأنا أفعل ما يأمرني به دون أنْ أفهم شيئًا مما أفعل، فقط أسمع وأطيع.

عرفتُ المعبد في الجدس؛ إذ كان جدّي لا يذهب من دوني أبدًا، وفيه تعلّمت الصلاة بعدما كنت أكتفي بالنظر إلى من يهتزّون في معبد قاع

اليهود بصنعاء، لم أُحب يومًا الحاخام باروخ، كانت نظرتُه تملؤني بالرعب، كلما رآني جاء ليكلّمني؛ فأحتمي منه بجدّي حزقيال ولا أُكلمه، جدّي كان يعرف أني أخاف الحاخام ولا أحبّه، فكان يكتفي بذهابي إلى الصلاة ولم يرسلني للتعلُّم في المعبد. عندما طلب منه باروخ أنْ يرسلني إلى المعبد للتعلم مع الصبيان، قال له جدّي: «اترُكه يا باروخ، فما زال صغيرًا على أمنياتك». لم أكُن حينها أعرف ما أمنياته تلك.

نسيت أنَّ نصفي مُسلم منذ رحلنا إلى الجدس، توقفت عن الصلوات الخمس، ولم أَعُد أنظر في المصحف، انتبهَت أمي لحالي التي تغيرت، فأخذتني يومًا إلى حجرتها وسألتني:

- مَن أمك؟

- صفية.

- وما دينها؟

- اليهودية.

- ومَن أبوك؟

- عبد الله بن إسماعيل.

- وما دينه؟

- الإسلام.

- إذن؛ فاعلم أنَّ وفاءك لأمك لا يعني خيانتك لأبيك، فإياك أنْ تغفل عن هذا يا ولد.

ثُم تركتني وخرجَت من الغرفة. أدركتُ مُرادها، فأصبحتُ أحافظ على الصلوات الخمس بغرفتي، أصلي للّه في البيت، وليَهْوَهْ في المعبد، فلا غالبَ ولا مغلوب.

يوقظني جدّي كل يوم قبل شروق الشمس، لنبدأ العمل، ويؤكّد عليّ دومًا أنْ أبدأ يومي بصلاة «الشحاريت» قبل الخروج من غرفتي، أصبحتُ أحافظ عليها كل صباح، أقرأ فيها آيات (شَمَاعْ إسرائيل)، أحببتها كثيرًا، فكنتُ أقرأها كل يوم في صلاتي الصباح والليل: «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا ربٌّ وَاحِدٌ». لم أشعر قط بكبير اختلافٍ بين ما تقوله التوراة وما يقوله القرآن، ولذا لم يكُن يُزعجني أنْ أبدأ يومي بصلاتين، صلاة قبل الشروق أقرأ فيها: «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ»، ثُم صلاة بعد الشروق، أقرأ فيها «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا ربٌّ وَاحِدٌ». أُصلّي لذات الإله بلُغتيْن، وليس لإلهيْن، مرة أناديه «بالعربية» وأخرى «بالعبرية»، ولا فرق بينهما عندي سوى ترتيب الباء والراء، تُرى مَن يسبق مَن؟ العربية سبقت بالراء؟ أم تعجّلت العبرية بالباء؟ لا أدري. لكن ما أعرفه جيدًا، أنَّ ذاك الفارق في الترتيب، صنعَ حربًا بداخلي امتدت قرونًا طوالًا، حربٌ لأجلهما، لكن ضد بعضهما، أقاتلُ مَن أقاتل لأجله!

كان جدّي يستريح من العمل عند الظهيرة وأخرج أنا للعب، فلا أجد مَن يلعب معي، لم يُحبّني الأطفال في الجدس، لا من المسلمين ولا من

اليهود، لم أكُن أعرف أنَّ حكاية الحَمَل المُريب يرددها الجميع، مرة قلت لأحد الصغار: «اجلس معي لنلعب». فقال: «لا ألعب مع ابن الزانية». لم أفهم ماذا تعني كلمة الزانية، غير أني تألمت كثيرًا وبكيت. سألتُ جدّي: «لماذا لا يلعب العيال معي، ويقولون لي يا ابن الزانية؟». لم يجب جدّي عن سؤالي، فقط قال: «بل هم أبناء الحرام». ثُم مسح على رأسي وضمَّني إليه، في اليوم التالي أخبرني إنه سيرسلني إلى بيت الحاخام «داوود» ليُعلِّمني. كنت صلصالًا ليِّنًا، يغرز كل أحدٍ أصابعه فيه ليصنع ما شاء، كحجرٍ في أي حائط وضعوه؛ استقرّ. يهوديًّا كُن؛ فكنت. مُسلمٌ أنت؛ فأصبحت. ودومًا لا حول لي ولا قوة، أسمع فأجيب، أؤمَر فأستجيب.

الحاخام داوود أصبح مُعلمي وصديقي الوحيد، تركَ في نفسي أثرًا لم يمحه الزمن، كان قد اعتزل اليهود ولزِم داره منذ سنوات، نادرًا ما يراه أحد خارج بيته، لكنَّ الجميعَ يُجلّونه ويبجّلونه، حتى المسلمين من أهل الجدس يحبونه ويوقرونه، يتبرّكون به ويثقون بِعلمه لا سيما أنه كان خبيرًا بأنواع الداء وصنوف الدواء، فإذا أصاب صغارهم مرض أرسلوهم إلى الحاخام، ليصف لهم الدواء ويدعو لهم بالشفاء. كان داوود شيخًا جاوز السبعين، وديعًا سَمِحًا، له لحية بيضاء ليس فيها أثرٌ لسواد، خفيفة عند الصدغين، كثيفة ومرسَلَة عند الذقن، وجهُه أبيض وعيناه عسليتان واسعتان، ملامحه تبعث على الراحة والهيبة في آنٍ، عندما أرسلني جدّي إلى بيته حسبتُ أنه سيُعلِّمني التوراة ويشرح لي وصايا التلمود، لكنه كان يتحدّث في كل شيء، إلا عقائد اليهود، كثيرًا ما كان يطلب مني أنْ أحكي

له ما كنت أفعله بغرفة القليس قبل الرحيل، فحكيتُ له كل شيء، إلا حُلمي، لم أقصَّه عليه قط.

أخبرته يومًا إني حفظت القرآن كاملًا على جدّي إسماعيل؛ فطلب مني أنْ أقرأ عليه شيئًا مما أحفظ، تلوت عليه سورة «الذاريات» كاملة، وهو ينصت ويهز رأسه، وعندما انتهيت قال لي: «أحسَنَ جَدُّك تحفيظك الكتاب». ومرة طلب مني أنْ أقرأ عليه من سورة «البقرة»، قرأتُ عليه وأنا أراقب وجهه الذي يتقلب مع تلاوتي للآيات التي أحفظها عن ظهر قلب، تجتاحه أصناف المشاعر، مرة يبتسم، ومرات يتقلّب في جلسته كالغضبان، وكلما قرأت آيةً مطلعها «يا بني إسرائيل»؛ اعتدل، كأنه ينتظر الأمر أو الحكم على قومه. سألني بعدما انتهيت من التلاوة:

- تحب التوراة أكثر أم القرآن يا حسّون؟

- إني تائهٌ يا سيدي، أُصلّي صلاتيْن، وأقرأ كتابيْن، في غرفة القليس كنت أذهب كثيرًا إلى المسجد، وهنا لم أَعُد أذهب إلا إلى المعبد، لا أعرف لأي دين أنتمي، أهو الإسلام أم اليهودية؟!

- وبماذا يُخبرك قلبك؟

- لا يُخبرني بشيء، أحبهما معًا حتى لا تغضب أمي ولا أخون أبي.

- أنت مسكين يا حسّون، لكن لا يحزنك ما أنت فيه، احفظ عذوبة قلبك، ولا تكترث بماذا يُسمي الناس مَاءَك، ما دام صافيًا لا تعكره الكراهية ولا تكدره الشوائب.

- إنني خائف على الدوام يا سيدي، فأنا في صلاة المسلمين ألعن اليهود، وفي صلاة اليهود ألعن كل من ليس يهوديًّا؛ فأُصبِح ملعونًا على لساني مرتين!

- لا تبتئس يا بنيّ، اللعنة تصيب الأشرار وحدهم، كُن طيبًا، ولن تمَسّك شظايا اللعائن، مهما اختلَف اللاعن.

أيامًا كثيرة كنت أذهب إلى مُعلمي داوود، فلا يُكلمني كلمة واحدة، فقط يبتسم بوجهي حين يفتح لي باب البيت، ثُم يُدخلني إلى غرفة الحصير، غرفة منعزلة في زاوية البيت، لم يكُن بها أي أثاث سوى فرش من حصير خشن، وقنديل قديم يبعث النور على استحياء في أرجاء الغرفة التي لم يكُن يصِلها ضوء من خارجها، يجلس الحاخام في ظلمتها دومًا، وحين أذهب إليه يوقد القنديل حتى لا أستوحش، ما أنْ أدخلها حتى أمضي نحو الزاوية صامتًا، ويذهب هو إلى الزاوية الأخرى ليُصلّي، يقترب من الجدار كأنه يريد أنْ ينحشر في الزاوية بين الحائطيْن، يظل واقفًا لساعات، كأنه عمود لا حياة فيه، ثُم يقطع السكون بهزّ رأسه إلى الأمام والخلف بسرعة متوترة، حتى إذا أدركه التعب سقط على الأرض كأنَّ عموده قد انهدَّ، ثُم يسجد سجودًا طويلًا لا حراك فيه، يسكنُ نفَسُهُ حتى أحسبه مات، ثُم ينهض كأنه بُعِثَ من قبره، فيُقدم لي حبّات من التين دون أنْ نتبادل كلمة واحدة، وبعدها أعود إلى بيتي.

في مرات أخرى كنت أجلس معه طوال اليوم، فلا أراه يُصلي ولا يدخل صومعة الحصير، ينزل إلى المخبأ الصغير أسفل البيت، حيث يضع برميليْن من الخمر المُعتّقة، فيملأ زجاجة ويجلس معي وأمامه الخمر وصحن مملوء بالزبيب والتين المُجفّف، يأكل من هذا ويشرب من تلك. كنت أحبُّ أوقات نشوته أكثر من صلاته في الخلوة، وَجْدُهُ في الصلاة

حصريات مكتبة

تابع كل ما هو جديد وحصري على موقعنا الرسمي
www.maktabahh.blogspot.com

وبكاؤه الطويل يبعثان الخوف والرهبة في قلبي، بينما ضحكته النشوانة تبعث الطمأنينة في نفسي. كان إذا تملّكه السُّكْر يظل يتكلم بلا توقف، يُحدّثني عن عائلات اليهود في الجدس وأنسابهم، ويخبرني بالغرائب عن كل منهم. سألني مرة وهو سكران:

- هل تعرف عمران الصائغ يا ولد؟

- نعم أعرفه يا سيدي، جاء مرة أو مرتين إلى بيتنا ليزور جدّي حزقيال.

- تعرفه لكنك لا تعرف من أين جاء بأمواله الكثيرة. لقد أثرى من فَرْج امرأته، يرسلُها القوّادُ إلى الحاخام باروخ ليفعل بها ما يفعل، ثُم يأمُر باروخ نساء اليهود أنْ يشترين الحُليّ من عمران، فيستجبن له. وإني أقسم بالعصا والتابوت إنَّ ابنة عمران ليست ابنته، بل هي من وطء باروخ لأُمها، والبغل عمران يعلم هذا ولم يطلّقها. وباروخ، الذي يقولون إنه ابن «شمعون بن سمعان»، هل حقًّا هو ابن شمعون؟!

- لا أعرف يا سيدي.

- إنَّ شمعون يا ولدي قد مات بعدما دخل بأُم باروخ بسنتين، وكان عقيمًا لا تثمرُ نطفته، فلما مات خاف أبوه سمعان أنْ تخرج كنّته من بيته، أو تزني في بيوت اليهود، فضاجع الحَمُوُ كنّته، فحبَلَتْ بباروخ، ثُم نسب سمعان ولدَها لابنه الميت. وعندما أعلمتُ باروخ بحقيقة أصلِه المُدنّس، قال إنه يعرف هذا ويباركه، بل تبجّح وقال لي: «فعَلَها مِن قبل

«يهوذا» في كنَّته وأعطاها خاتمه وعصاه، وهو كبير «الأسباط»، فلم تُبكِّتهُ التوراة، بل باركَته وباركت نسله». ما أشد وقاحة الأنذال! ولماذا ألومُ على عمران وباروخ ولستُ خيرًا منهما! تزوجتُ «أليصابات» خالة أمك، كانت أجمل بنات اليهود، عشقتُها وطاش بها عقلي، حتى صارت أحبّ الناس وكل الناس، فهل ردها حُبي عن خُلقِ قومها يا بني؟! العاهر غدرَت بي وأحبّت «دانيال» ذا الوجه الجميل، وأسلمَته نفسها في بيتي، وعلى سريري، حتى حبلَت منه، وأنا مثل جروٍ فقدَ أُمه، أنوحُ بحسرتي، انحنيت أمام خيانتها ولم أرفع يدًا لرد كرامتي، بل قلت لها إني أغفر جرمها إنْ هي تابت، ولم تَعُد لعشيقها. لكنها مثل الأختيْن «أَهُولَة وأَهُولِيبَة» اللتين عَشِقتا الغرباء وخانتا الله، ومثلهما خانتني العاهرُ مرة بعد مرة، كانت تزني وهي تحتي، ثُم وضَعَت ثمرةَ زناها ولدًا، ويا لَهواني سمَّته «دانيال» حبًّا في اسم رفيق زناها، ورضيتُ أنا، كما يرضى يهوديٌّ بذِلَّته، فلم أطلّقها حتى ماتت. ثلاثون سنة وأنا أزور قبرها صباح كل سبت وأتبتّل فوق ترابه، أقول لها قومي وازني كيف شئتِ لكن أريني وجهكِ يا أليصابات الحبيبة، ألعنُها في صلاتي، ثُم أبكي على قبرها حبي، كما يلعن الله اليهود ويُحبهم. نعبد العجل، نسجد لـ«ملوخ»، نحتمي بأشور وبابل، ولا نلجأ إلى ربنا ربَّ الجنود؛ فيضربنا بالذّل ونسقط بكل سيف من سيوف الأمم، ثُم نهرول إليه؛ فيقول تعالوا، أنتم خرافي، وأنا الراعي الذي يهشُّ عليكم، وكلما طهّرنا نهرب منه مرة أخرى، حتى يئِسَ الله من شعبه، فأبعَد

وجهَه عن وجهِ سارة، وتبسَّم لوجه هاجر وطفلها الهجين، تركَ شعبَه، خانهم كما خانوه، وألقى بالعهد لجراءِ هاجر، وها نحن أبناءُ سارة العزيزة مستعبدون ذميّونَ، عند أبناء الجارية، كيف رَضيَت نفسه أنْ يُلقي بنا إلى يد الغرباء ونحن شعبه، أما كان له أنْ يصبر أكثر من هذا؟! لكن لا بأس يا بني، فهو لا يزال يُحبّنا، والدليل أني لا أزال أحبُّ أليصابات الخائنة، بل وأحبُّ ابنها دانيال، ابن زناها.

ظل معلمي داوود يتكلم بغير توقف، يُخلِّط في الحديث ويهذي بما لا أفهم في بوحه السكران، وأنا أستمع بغير كلام، حتى هَدَّه التعب وغلبه النعاس، وهو لا يزال يتمتم بكلام غير مفهوم، فوضعت عليه غطاءً لأستر عورَة آلامه وأُدفِّئ برد عظامه، ثُم تركته وعدتُ إلى بيت جدّي حزقيال.

زارنا جدّي إسماعيل في الجدس، كانت أول مرة نراه منذ سافر إلى الجنوب، اعتذر لنا عن غيبته التي امتدت لسنتين، وأخبرنا بموت جدّتي رضيّة، بكت أمي عليها بدموع صادقة إذ كانت أرحم الناس بنا، وجَمُدَت عيناي عن الدموع فلم أبكِ. منذ تفتحت عيناي على جدّي وأنا أراه شيخًا كبيرًا، لكنه كان موفور الصحّة صحيح البدن، يمسك عصاه بحكم العادة وهيبة الشيوخ، عندما زارنا رأيت حاله تبدلت، أعطَبَته الضربتان: موتُ أبي ضرَب روحَه بالعجز، ثُم جاءت ضربة جدّتي فأصاب موتها جسَدَه بالبِلَى. صار كخِرقَة لا تكاد تحمله عصاه. أمي رأت ما رأيتُ، وبكت كثيرًا على ما آلت إليه حال جدّي، فلا أدري أكانت دموعها على الجدّ المُتداعي، أم على موت الجدّة، أم على ولدها الذي تتآكل جذوره؟

رفض جدّي المبيت عندنا رغم إلحاح أمي عليه. كنت أعرف أنه يكره أنْ ينام تحت سقف اليهود، لكنه لم يفصح بما في نفسه، وتعلل بأنه في عجلة من أمره لقضاء بعض حوائجه. عندما وضع جدّي حزقيال طعام الغداء، تململ جدّي إسماعيل، فوضع جدّي حزقيال يديه على ركبتيه، وقال له: «أنت تعلمُ أنَّ طعام اليهود حلالٌ يا شيخ إسماعيل، وتعرفُ أننا نذبح أنعامنا كما يذبح المسلمون، ونُسمّي الله عليها، أوليس في القرآن (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)». أعجبني ذكاء جدّي حزقيال، وأحببت نبل جدّي إسماعيل الذي لم يشأ إحراجه فأكل، لكن كما يأكل الشبعان.

كان جدّي حزقيال شديد التودد إليه على غير ما في نفسه؛ إذ كان على الدوام يقول لي: «أنتَ أعظم عطايا الرب لي يا حسّون، عطيته التي جاءتني في الكِبَر، لكن الكلاب ولَغَت في عطيته». لم يغفر قط لأمي أنها تزوجت من مُسلم، وكنت أسمعه يقول لبعض أصحابه: «حفيدي حسّون هو الطاهرُ، ابن النجس». لكنه أمام جدّي كان على عكس حقيقته يقول: «كم أعجبُ من أدب حسّون، نِعم الغلام الذي أدَّبتموه بأدبكم، حتى أصبحتُ أسيرُ بين اليهود مفاخرًا، وكيف لا وقد صاهرتُ مَن يحفظون ذمّتنا ويحسنون إلينا». شكره جدّي إسماعيل ببسمة المُرتاب، ثُم عرض بعدها على أمي أُمنيتَه القديمة، أنْ يأخذنا معه إلى الجنوب بعدما خلت عليه الدار، فكانت أمي بين حيرة قبول ما لا تحبّ، وقسوة ردّ أُمنية الشيخ المسكين! فقالت له: «أفعلُ يا شيخ إسماعيل، لكنني أُعاني الوَهَن فما إنْ أستردّ عافيتي حتى آخذ حسّون ونأتي إليك». فقال لها: «إنْ بقيت حيًّا يا بنيّتي، إنْ بقيت. فما أحسب أنَّ الغربة ستطول، اشتقتُ إلى الأحبَّة».

صدقَ حدسُ جدّي، فما هي إلا أشهر ثلاثة حتى جاءنا نعيه، مات جدّي وانقطع جذرٌ من جذوري لأعرج في الحياة، انتهى ما يربطني بالمسلمين، فلم يبقَ في قلبي سوى القرآن يُذكرني بأني محمديُّ الديانة، كما أني مُوسويُّ الدينِ، والحياة. كان حزني ضبابيًّا على موت جدّي، رغم أني قضيت في صحبته خمس سنوات، لم يرتبط به قلبي؛ إذ كنتُ أراه شيخًا طيبًا يُعلمني القرآن حتى حفظته، يمسح على رأسي ويعطيني بعض النقود، وفقط. لم يكُن يُحدّثني عن أبي أو يتحدّث عنه أمامي، ربما

هو أيضًا لم يغفر له عصيانه. لقد كان وجودي سببًا في غضب الأجداد على الأبناء، غضبٌ لم يَطلْني شرَرُه وألسنَةُ لهيبه، لكن خنقني دخانه. ولذا لم أحزن كثيرًا على موت جدّي إلا كما يحزن طفل على موت إنسان كان يعطف عليه، وحزن الأطفال سريع الزوال.

فرِحَ جدّي حزقيال بموت جدّي إسماعيل، وإنْ أخفى هذا عن أمي، فقد أبداه لي. كلما خلا بي يقول: «الآن قد صرتَ خالصًا لليهود يا حسّون، وطهّرك الرب من رجس الأغيار». وعلى عكسه، كسرَ موته قلب أمي، أو جدد كسره القديم، وصارت أشد قسوة معي كلما غفلتُ عن الصلاة أو القرآن. تعرفُ أنَّ اليهودية تبتلع نطفة حبيبها الذي تقاتل من أجله، حتى لا يموت من جديد بموت الإسلام في قلب ولده، فتجتمِع عليه الميتتان. لم يكُن جدّي حزقيال يجرؤ على مواجهة حزمها، حتى إنه في أثناء عملي معه، كان يأتي إليَّ ويقول: «دَع ما في يدك وصلِّ الظهر». يقولها بوجه صادق لا ادعاء فيه، وعند انتهاء العمل يرسلني إلى الحاخام داوود. رضيَ جدّي، أو استسلم لأنْ يكون حفيدُه على الدينَين معًا.

مر عامٌ هادئ كنت فيه سعيدًا رضيًّا، أقضي يومي في العمل مع جدّي من أول اليوم حتى منتصف النهار، ثُم أذهب إلى الحاخام داوود حتى أول الليل. تغيّر الحاخام فلم يَعُد يتحدَّث في أمر يهود الجدس ولا يقص عليَّ أخبار الصبايا في التوراة، وأصبح بدلًا عن هذا يقصُّ عليَّ ملاحمَ التوراة ويشرح لي ما يستغلقُ عليَّ فهمه، أرادني يهوديًّا مكتملًا، أو ربما أوصاه جدّي بهذا. يُفسّر لي قسوة الرب على شعبه ويؤكد حُبَّه لهم، ويُحدّثني عن محنة اليهودي في كل زمان، أصبح يتحدَّث كحاخام، لا كمُعلمي الطيب الثرثار. كانت حكاياته عن بنات اليهود أحب حديثه إلى نفسي، شيءٌ ما كان يتحرك داخلي لحكاياتهن، وميلٌ لم أكُن أفهمه للحديث عن النساء، كان ينتابني شَبقٌ خفيف، لا يجاوز ارتفاع ثيابي قليلًا عند سماع قصص النساء العاشقات في التوراة، وحكايات «نشيد الأنشاد».

بعدما أنتهي من دروس داوود المُحبّبة إلى نفسي، كنت أعود إلى أمي، فتسألني عن تفاصيل يومي، فأحكيها لها بحذافيرها، وإنْ كنت أحتفظ بالقليل من حكايات داوود خجلًا منها. لم يكُن لأمي سلوان سواي، وبرغم عطف جدّي الكبير عليها وحُبّها له، فإنَّ شيئًا خفيًّا كان يحول بينهما، فلا يتكلمان على الطعام ولا يجلسان معًا، تُمسك أمي بسوط الكبرياء العظيم لحبّها ولا تفلته أبدًا، فلا تسمحُ بجدال أو حديث عن أبي، لعل ذاك الحب هو ما حجبها عن أبيها؛ إذ لا تقبل في قلبها بشريك معه، ولا حتى أنا. كم

شعرتُ أنَّ حبّها لي منشؤه أني فقط ابن حبيبها، ليته لم يمُت، لأرى أي رجل هذا الذي تحمل له أمي كل هذا العشق، كانت كلها له، روحًا ولحمًا ودمًا، كانت صفية، صفيتَه، وصافيةً من كل حبٍّ إلا حبَّه.

عند انقضاء ذاك العام بدأت الأعاصير تضرب جداري المُتداعي، وإنْ سبق الإعصارَ شيءٌ من الهبوب لينذر بما بعده، حربُ اليهود والعرب على أرض فلسطين، كانت بداية لسنوات غربتي؛ إذ قامت دولة إسرائيل، وأصبح لليهود دولة بعد انتصارهم على كل جيوش العرب، الحمد لله إنَّ جدّي إسماعيل مات قبل أنْ يرى ذلك، لعله كان كرهني حينها وعاد كرهه القديم لأمي، ورأى فينا عدوًّا غازيًا.

لم يسلم يهوديٌّ في اليمن من الأذى، وإنْ كان الأمر لم يجاوز تعرُّضًا بكلام غليظ، ومقاطعة المسلمين لليهود وتجارتهم حتى كسَدَت. وعلى كراهية جدّي حزقيال للمسلمين لكنه لم يفرح بقيام دولة اليهود، كان يقول: «يهودٌ لا نعرفهم، أقاموا دولة على أرض لم نطَأْها، ونحن مَن ندفع ثمن فعلتهم في بلادنا!». لم يرَ جدّي له بلدًا إلا اليمن، حتى لو كان فيه ذميًّا يُجبَرُ على ربط الزنّار ويُمنَع من وضع خنجر فوق خصره، لكنه كان يمنيًّا حتى العظم. أما مُعلمي داوود فكان الأشد غضبًا، حسبتُ أنَّ قيام دولة إسرائيل سيفرِحه، وهو الذي كان يحكي لي كل يوم عن مجدهم القديم على أرض أورشليم، ويصف لي كيف قام هيكلهم، وكيف تم نقضُه حجرًا حجرًا، ويقسم لي إنَّ يومًا سيأتي ويعود اليهود إلى أرضهم، سألته يومًا: «لماذا لا تفرح بدولة كنت تُحدّثني عن شوقك لقيامها؟!».

فقال: «ليست هذه، ليست هذه يا حسّون. عهد اليهود أنْ تأتي دولتهم مع (المسيح المُخلِّص)، وقيامُ الدولة قبل مجيئه كفرٌ بالعهد وتدنيسٌ للوعد، ليس على أرض فلسطين إلا الكفَرة، عَودَتُنا لا تكون إلا بالمسيح، هؤلاء ليسوا يهودًا يا بني، بل كُفّارًا».

لم يطُل هجرُ مُسلمي اليمن ليهودِه؛ إذ رأوا أنَّ شيئًا لم يتغيّر، وأنَّ اليهود هنا غير اليهود هناك، أو هكذا كان يبدو، حتى ظننت أنَّ الإعصار سيحتبس، وأنَّ الطوفان سينحسر، لكن ظني لم يُصب.

أتى الغرباء، لا ندري من أين أتوا، أو كيف؟ لكنهم جاؤوا. كانت وجوههم غير وجوهنا، وألسنتهم ليست من جنس ألسنتنا، يتحدّثون بعربية عرجاء تفضح حقيقة أنهم ليسوا من أهلها، يأتون حينًا في جماعات قليلة، وأحيانًا يأتي أحدهم منفردًا، يطرقون أبواب اليهود، ويدخلون معابدهم، يُبشرون بأرض الميعاد ويدعون أهلنا للرحيل إليها. لم تكُن زيارتهم تخلو من الهِبَات، حتى أصبح فقراء يهود الجدس ينتظرون قدومَهم، بين وقت وآخر. ودومًا يصحبهم الحاخام باروخ في زياراتهم، سواء للبيوت أو المعبد، يفصح عن لسانهم الأعجمي إنْ أعيتهم العربية، ويوثّقُ وعدَهم الذي يَبذِلونه لليهود بحياة كريمة على أرض إسرائيل.

لم يستجب لهم اليهود، ولم ينبذوا دعوتَهم أيضًا، كانوا بين الخوف والطمع حيارى. وحده داوود كان ينبذُهم بغير مواراة، وينعتهم بأعداء الرب، وناقضي عهد التوراة، ما عاد يعتزل الناس كما كان يفعل، بل أصبح يختلط باليهود في البيوت والمعبد والطرقات، يحذرهم من كيد الغرباء،

www.maktabbah.blogspot.com

صار ممحاة تزيل أثر كلماتهم وما خطّته أقلامُ وعودهم، يُخوّف اليهود من مخالفة كتابهم، ويذكّرهم بأنَّ مملكة إسرائيل لا تقوم إلا بالمسيح، وليس ثمة مسيحٌ، يخبرهم إنَّ كل مملكة من دون المُخلِّص وثنيةٌ نجسةٌ، وإنكارٌ ليَهْوَهْ، رب الجنود. واليهود صامتون لا هم إلى داوود الغاضب، ولا إلى باروخ الراغب. جدّي حزقيال كان الأكثر تصديقًا لكلمات داوود، رفض استقبال الغرباء في بيته وصرفهم بغير تلطُّف عندما جاؤوا مع باروخ يطرقون بابنا، عرف جدّي صوت الحاخام وسأله دون أنْ يفتح الباب:

- مَن معك يا باروخ؟

- ضيوفٌ أتوا يُكلمونك.

- انصرِفوا، لا يُكلموني ولا أُكلمهم، ليس لي أرض إلا اليمن، ولا أعرف إلا بيتي، ولا حاجة لي في غيره.

بعضُ عائلات اليهود أصبحت بيوتهم خاوية، يأتي الليل وبيوتهم تضجُّ بأصوات أصحابها، ثُم يطلع النهار وليس خلف الجدران إلا الهواء! لم يكُن أحد يسأل: أين ذهبوا؟ فالجميع يعرف إلى أين قد رحلوا. كانت هجرة اليهود أول الأمر قليلة حدّ الندرة، فلم يلتفِت إليها أحدٌ، سعيُ الغرباء الدؤوب لم يؤتِ أُكُله، لكن تغيّر الأمر كثيرًا بعدما سمع أهل الجدس عن مذبحةٍ لأسرة يهودية في صنعاء، قُتِلَ الوالد والأم وستة أطفال، فانتشَر الخوف الذي يُغيّر مبادئ الرجال أكثر مما يُثبتها حبُّ البلاد، أصبح في كل قرية لليهود قصة للقتلِ، لم يكُن عهدُ أهل اليمن أنْ يتعرضوا لليهود

بمثل هذا، حتى إنه لم يُقتَل يهوديّ واحد في أول أيام قيام دولة إسرائيل، وكان غضبُ مُسلمي اليمن أعظم ما يكون وقتها؛ إذ إنَّ نار الفاجعة لم تكُن قد انطفأت، فكيف يفعلونها بعد سنتين من قيام الدولة وقد خمدَت النار ولم يبقَ إلا الدخان؟!

أصبح الخوف يجتاح البيوت كلها، ولا أحد يجرؤ على التحدُّث عن المقتول ولا عن قاتله، وحده مُعلمي داوود كان يشير نحو القتلة بغير تردد، سألته: «مَن يقتل اليهود يا سيدي؟». فقال لي: «قسمًا برب موسى، لم يقتلهم إلا الغرباء. أرادوا إفزاع يهود اليمن، وقومنا أسرعُ الخَلق هلعًا». لم يسلم جدّي حزقيال من خوفه هو الآخر، أصبح يمنعني من مغادرة البيت، وإذا قلت أريد الذهاب إلى بيت الحاخام، رفض، أو جاء معي إلى بيته حتى يطمئن عليَّ بنفسه. لم يكُن لبيتنا إلا نافذة واحدة تطلُّ على الطريق، نزع جدّي شراعها الخشبي، ووضع مكانه قضبانًا من الحديد، وزاد في أقفال باب البيت خمسة أقفال، ولم يَعُد ينام إلا بعدما يغلق عليه باب غرفته من الداخل، ويوصي أمي بمثل هذا.

منعَ «الإمامُ» يهودَ الشمال من الهجرة، حينما استفحل أمر النزوح عن اليمن، لكن هذا المنع لم يستمر طويلًا، أُبرِمَ اتفاقٌ له ثمن، وبعدما قبض الإمام أجره، سمح لليهود بالهجرة، فأصبحت جهرة لا خفية، عرف الناس بالصفقة التي سُميت: «بساط الريح». جاءت الطائرات أسرابًا لا تنقطع، تحمل يهود اليمن إلى فلسطين، ستون ألفَ يهوديّ لم يبقَ منهم إلا بضع مئات بعد سنة واحدة من بدء الهجرة. الخوفُ والرجاء كانا

جناحَين قويين جدًّا لحمل الطائرات المعبَّأة باليهود، قَتْلُ أسرة واحدة بإحدى القرى، كان كفيلًا بإفراغِها من كل يهوديّ. «المسلمون يذبحون اليهود» هكذا كان يُقال في كل المعابد والبيوت، وداوود يسيرُ في الطرقات صائحًا: «ما قتلَ اليهود إلا اليهود». لكن صُمَّت الآذان عن صوتِه، حتى جاء موعده.

كنتُ أول مَن رأى! دخلتُ بيتَه صباح السبت، بعدما طرقتُ الباب، فلم يأتِني صوت مُعلمي وهو يصيح كعادته: ادخل يا حسّون. دفعتُ البابَ فانفتح، رائحة الدم كانت تحدوني، كل الروائح تختلطُ عليَّ إلا رائحة الدماء منذ شربتها من كأسِ موسى، قادَتني أنفي المُعبَّأة بالرائحة الحمراء نحو حجرة الحصير، سقطت عيناي على جسد مُعلمي ومعها قلبي سقط، مُسَجًّى، ووجهه نحو الأرض، كان. ذبحوه، وكتبوا بدمه على جدران الصومعة: (اللة أكبر)، والنقطتان فوق (الهاء) تفضحان القتلة، فالعرب لا يخطئون أبدًا في كتابة اسم الله.

قرر جدّي الرحيل. لم يصدقني حين قلت له إنَّ الغرباء مَن قتلوه لا العرب، فقال لي: «يستوي الأمر يا حسّون، لو لم نرحَل للحِقنا به، لم يَعُد لنا في الأرضِ رزقٌ ولا مُقام، الرب يعرف أنَّ قلوبنا مُنكرة لدولة تأتي بغير المسيح، تقيم أجسادنا بأرضهم وتبقى قلوبنا بأرض اليمن يا بنيّ». شيءٌ ما كان يربط بين جدّي حزقيال وداوود، ربما لأنهما تزوجا من أختين، أو ربما عرفَ جدّي أنَّ زوجة داوود كانت خائنة، فحنَّ على داوود وأشفقَ عليه، لا أعرف سرّ رباطهما، لكن أعرف يقينًا أنَّ جدّي أحبَّه ووثق به، وقرر أنْ يغادر اليمن عندما خلا من رفيق عمره.

ظننتُ أنَّ أمي سترفض الرحيل، لكنها قبلت به، جدّي إسماعيل قد مات، ولم يَعُد لي من أهل أبي مَن يقبل بنا، ومُعلمي ذبحوه، وجدّي حزقيال خائفٌ مستسلم للمصير، وأمي لا تريد إلا نجاة ولدها في أيّ أرضٍ كانت. أشفقتُ عليها كثيرًا، فأنا أعرف أنها لا تريد الهجرة أبدًا، لكنها كانت يائسة مُحطّمة الرجاء، تكره أنْ تنزل بأرض يحكمُها أعداء حبيبها، تشعر أنَّ الرحيل خيانة لأبي، وإنْ لم تبُح بهذا، لكن وجيعة القلب فضيحة لا يسترُها شيء. رضيتُ بما قررته أمي، ومضيتُ بغير كلام أحزم الحقائب التي أحضرها جدّي، لنحملَ عزيزَ المتاع.

على ظهر طائرةٍ ركبت، وفي أرض فلسطين نزَلت. يمنيٌّ، أبوه مسلم، وأُمه يهودية، نزلَ بأرضٍ لم ينقطِع عنها سيلُ الدماء منذ خلَقَها الله.

اليوم الثاني

حطَّت الطائرة في مطار حيفا. (طائرة أمريكية.. تحمل يمنيين.. إلى أرض فلسطين؛ ليصبحوا شعب إسرائيل)، معادلة لم أفهم أركانها، بين أربعة لا يعرف بعضُهم بعضًا! مصيرٌ تحدَّدَ ولا أحد يعرف مَن حدَّده، فقط قيل لنا: «امضوا»، فمضينا.

الفقر فصيحُ اللسان لا تَخفَى حقيقته، وملابسنا التي تستر أقل مما تُظهر، تفضحُ فقرنا وتُخبر عن موطننا المُعوز. النساء يبكين، والرجال صامتون يمضغون حزنهم وما اصطحبوه معهم من «القات»، يعرفون أنهم مُساقون لا يملكون أمرَهم، لا يجدون ما يُسكّنون به قلوبَ النساء والصغار؛ إذ إنَّ قلوبهم هم أنفسهم غير ساكنة، وباروخ يجلس في مقدمة الطائرة يصيح: «يا أرض الميعاد، يا أرض الأجداد، إنه الوعد». ولا أحد ينظر إليه، أو يرد عليه. خوفٌ يكسوه الصمت، وصمتٌ يتدفق من رحم الريبة، وارتيابٌ منشؤه جهل المصير.

نزلنا صفًّا واحدًا، مثل أسرى حرب، أركبونا حافلات لم نرَ مثلها في أرض اليمن، ومضوا بنا إلى مُخيم (معبروت) على أطراف حيفا، مُخيم تحوطه أسوارٌ من حديد، وعلى بوابته لافتة كبيرة، مكتوب عليها

بالعبرية آيةٌ من التوراة: «أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِالْمِصْرِيِّينَ. وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ». هل جاء بنا الرب إليه حقًّا، أم أنَّ الغرباء هم مَن فعلوا؟! لا بأس فقد جئنا في النهاية.

ظننتُ أننا أول الوافدين إلى معبروت، لكن أجنحة النسور كانت قوية جدًّا، حملَت قبلنا آلاف اليهود، المُخيم مثل يوم المحشر، كأنَّ اليمن كله قد جِيءَ به، سألت جدّي: «هل كل هؤلاء من يهود اليمن؟». فقال: «انظر إليهم يا بنيّ، تُخبرك وجوههم الطيبة، وخِرقهم المُمزقة إنهم من اليمن».

المُخيم كبيرٌ جدًّا، أكبر من قريتنا كلها، لكن ليس ثمَّة شجر هنا ولا منازل، فقط خيام تمتد، كأنها كل العالم. أسيرُ بجوار أمي بين الخيام وهي تمسك يدي، مَن يراني وهي تسحبني يظن أني طفل لم يجاوز الثامنة من عمره، وليس غلامًا بلغ الثانية عشرة.

كنت أخرج مع جدّي لنقف في الصفوف الطويلة أمام السيارات التي تأتي بالطعام، طعام لا مذاق له، طعام غريب، يقدمه أغراب إلى غرباء. أمي لم تكُن تغادر الخيمة، إلا مرة أول الصباح ومرة أول الليل، لقضاء حاجتها، ثُم تعود إلى الخيمة وصمتها. دومًا تُذكّرني بقولها: «هذه ليست أرضك، لا وطن لك إلا بيت أبيك، فإنّ أنا متُّ، فاصبر حتى يشتد عودك، ثُم عُد إلى اليمن، بيتك هناك في غرقة القليس. هذه وصيتي، فاحفظها ولا تَخُن». عاهدتها ألا أخون، وخُنت.

أطفال المُخيم كثيرون، لكن لا أحد يلعب معي، لا أحد يلعب في الحقيقة، لم تمهلنا الغربة كثيرًا حتى رمتنا بأرْزَائها، المرض كان يحصد الصغار،

كل ليلة نسمع نواحًا من جنبات الخيام، فثمَّة طفلٌ قد مات. اشتد حرص أمي وخوفها، كأنَّ الموت عَدوَى، وباب الخيمة قد يردُّ عدوى الموت في ظن أمي، منعَتني الخروج، فلم أجاوِز باب خيمتنا.

بعد شهرين رفعَت أمي الحصار عني، ليس لأنَّ الخطر قد زال، لكن لأنه صار قريبًا جدًّا، إلى حد الاعتياد، فخفَّ الخوف منه. سمحَت لي بالخروج إلى أطراف المُخيم دفعًا للسأم الذي لم أشكُ منه، وإنْ بدا على وجهي. في أقصى المخيم التقيت بأسرة من يهود غرقة القليس، عرفَتني الأُم فأخذتني إلى خيمتها وقدمت لي طبقًا من العسل وخبز «اليافعي»، فرحتُ به، فالخبزُ الذي يأتوننا به في السيارات لا مذاق له ولا رائحة، لا خبز أجمل من اليافعي، أكلت حتى شبعت. سألتني عن أمي، فأخبرتها إنها بخير، فقالت غدًا آتيكم لأزورها. كان للمرأة بنتان، الكبرى «يونا» والصغيرة «سعدية»، يونا في الحادية عشرة، وسعدية دون الخامسة، فرحت بصحبتهما ولعبنا معًا، يونا كانت جميلة، كلما أشاحت ببصرها بعيدًا كنت أسترق النظر إلى صدرها، الذي يحمل تفاحتين صغيرتين، ذكَّرني تفاحها بحكايات مُعلمي داوود عن بنات يهود المُشتهَيَات. قضيت ساعة في خيمتهم، وعندما عدت إلى أمي حكيت لها ما حدث، وسألتها لماذا لا تخبز لنا اليافعي مثلما تفعل أم يونا؟ فقالت: «سأفعل». لكنها لم تفعل.

انتظرتُ الصباح ولم أنم، الشوق يشدُّ أجفان عيون المُشتَهِي، كنت أشتهي رؤية يونا عندما تزورنا أُمها في الصباح، لكن يونا لم تأتِ؛ إذ لم

تفِ أُمها بما وعدت. مر أسبوع وأنا أنتظر، حتى غلبني الشوق فذهبتُ مرة أخرى لطرف المُخيم، لكن لم أهتدِ للخيمة، كل الخيام تتشابه، قضيتُ نهارًا بطوله لعلي ألمح يونا لكن خاب مسعى الشوق، وعدت خاويًا. توقفتُ عن البحث حتى نسيت يونا وتفاحتيَها، أجلس كل صباح أمام الخيمة بجوار جدّي، نراقب الوجوه، ندَفعُ الذباب وننتظر سيارة الطعام قبل موعدها بساعتين، بين سيارات الزاد كانت هناك سيارة بيضاء، عرفت أنها للإسعاف والعلاج، وأمامها كانت تقف يونا، وبجوارها أمها تحمل سعدية، التعبُ كان باديًا على الأُم، فدعوتها بغير نية خالصة لتستريح بخيمتنا، حتى يخفَّ الزحام؛ فاستجابت. عَرَفَت أمي فسارعت لعناقها، وجهلتها أمي، ذكّرتها بأنها كانت تشتري منها السلال في سوق قصر السلاح، بعد موت أبي، فتغيّر وجه أمي وكرِهَت أنْ يعرف أحدٌ قصتها مع أبي، علّمتها الغربة أنَّ كل أمر سرٌّ لا يُقال، حتى وإنْ كان الجميع يعرفه.

تركتُ أمي لضيفتها، وجلست مع يونا أمام الخيمة، أردت أنْ أقدم لها شيئًا، كنت أحتفظ ببضع حصوات لها أشكال جميلة، أهديتها ليونا، فألقَت بها وقالت: «ما أصنع بالحصى! هذا ملهاة الصغار ولستُ صغيرة». ثُم قدّمَت البرهان على أنها ليست صغيرة، مدَّت ساقيها أمامها، وحسَرَت الثوب عن سمانتين صغيرتين، حتى ظهَرَ منبت الوركين من فوق الركبة، مثل عمودين رفيعين بلون الحليب، وقالت: «أتلك سيقانُ طفلة تلعب بالحصى؟!». غضَضتُ بصري خجلًا، وظنته هي حُزنًا، فقامت وجمعَت الحصى وقالت: «حسنًا، لا تحزن، سأعلمك لعبة». وضعَت الحصوات

على راحتها وقذفَت بها للأعلى، ثُم قلبَت كفَّها بسرعة، فاستقر الحصى فوق ظهر يدها، دون أنْ تسقط منه حصاة واحدة، ثَبُتَ الحصى وقلبي سقَط.

تكررت زيارات يونا لخيمتنا، تأتينا كلما جاءت أمها لتعرض سعدية على الأطباء في السيارة البيضاء، لم أسألها عن داء أختها؛ إذ شغلني داءُ قلبي بها. لم تصدقني يونا عندما قلت لها إني في الثانية عشرة من عمري، وقالت: «سنرى، تعالَ معي». ذهبنا إلى طرف المُخيم الغربي حيث كان هناك عشرات من الخيام الخاوية، أخذتني يونا من يدي ودخلنا إحدى الخيام، نظرت إليَّ وقالت: «إنْ كنتَ حقًّا في الثانية عشرة فقبّلني، الصغار لا يحسنون القُبَل، فدعنا نرى كم عمرك حقًّا».

قالت جملتها ووقفت أمامي، حتى لم يَعُد يفصل وجهها عن وجهي سوى مسافة إصبعين، ثُم أغمَضَت عينيها وقالت: «هيَّا». صعَدَت السخونة من قلبي إلى وجهي، وأنا أنظر لشفتيها الدقيقتين، وخديها المُشرّبيْن بحُمرة شهية، كانت أطول مني قليلًا، فرفعتُ نفسي ولثمتُ خدها لثمَةً مثل نقرة عصفور. ففتحت عيونها وضحكت بصوت مرتفع، ثُم أمسكَت ذقني وقالت: «أنت حتى لم تبلغ السادسة». فدفعتها للخلف وقلت لها: «أنتِ لا تحبينني». تركتُ الخيمة يدفعني الغضبُ وصوتُ ضحكها الذي لم يتوقف، وهي تناديني: «تعالَ أيها الجبان لأعلّمك كيف يكون التقبيل». فلم أستمع لها، وعدت إلى خيمتنا.

يونا كانت أول يدٍ تطرق بابَ القلب، حبُّ الصغار طيّب ووديع، شغفي بجسدها لم يجاوز خيالي في لحظات وحدتي العابرة، كان همّي منصرفًا لجعلها تبتسم، بسمتها كانت أكبر انتصاراتي، لكنها صارت نادرة؛ إذ إنَّ المرض يشتدُّ بأختها سعدية، والأطباء في سيارة الإسعاف لا يصنعون لها الكثير، في الخاتمة نصحوا أُمها أنْ تتجه بها إلى (مشفى حيفا) لأنَّ إسعافات المُخيم لا تصلح لحالتها، لكن أُمها كانت واهنة وقد أمرَضَها الحزن، فذهَبَت يونا بأختها إلى المشفى. طلبتُ من أمي أنْ أذهب معها، فرفضَت، وقالت: «أخاف عليك التيه في مدينة غريبة». ولم تقتنع بحجّتي أني أكبر من يونا بسنة.

عادت يونا دون أختها، إدارة المشفى قررت احتجاز سعدية. تحاملت أُم يونا على نفسها وقررت في اليوم التالي أنْ تذهب إلى صغيرتها، حاولَت أمي أنْ تقنعها بالبقاء وتذهب هي بدلًا عنها، فأبَت. ذهبت أمي معها ولم تتركها، وبقيتُ في الخيمة وحدي مع جدّي، غلبَهُ النومُ فذهبَ إلى الفراش، وغلبني الشوقُ فذهبتُ إلى خيمة يونا. لم يكُن سواها بالخيمة، جلسنا صامتين أمام باب الخيمة ساعةً، ثُم سألتها عن أبيها، فأخبرتني إنها مثلي يتيمة، مات أبوها وهي في التاسعة من عمرها، حكيتُ لها مغامراتي في كنيسة القليس، وحكيت لها حلمي حين نمتُ في الحفرة تحتَ الشجرة، لم تُعِر حلمي انتباهًا وقالت بغير سبب: «هل تعرف أني بلغتُ

المحيض منذ أكثر من سنة؟». لم أفهَم معنى كلمة «المحيض»، شَرَحَت لي، فكدتُ أنْ أموت خجلًا، ضحكَت من خجلي وقالت:

– عيونك تصبح حلوة، حين تخجل يا حسّون.

– وأنتِ شعرُكِ جميل.

– تعالَ ندخل الخيمة فأنا أشعُر بالبرد.

دخلتُ وجلستُ قريبًا من باب الخيمة. فقالت:

– لا، تعالَ هنا على الفراش.

دخلنا تحت غطاءٍ واحد، عرتني وتعرت، تعانقنا كغصنيْن، دفءُ جسدها سرَى في عروقي، وأنفاسها نفثَت النشوة في وجهي وهي تُقبّلني، فقبّلتُها حتى رَضيَتْ، ثُم رحنا في نوم عميق عاريَين مُتعانقَين، دون أنْ أطرق بابها المُغلق، أو يخطرَ حتى ببالي أنْ أفعَل.

«ماتت سعدية». هكذا قالت أمي وهي تحتضنني وتخبئني بين ذراعيها، كأنها تريد إخفائي عن شيءٍ يقترب. تركتُها وجريتُ إلى خيمة يونا، وجدتُها صامتة وعيونها مفتوحة على الفراغ، ريقُها يسيلُ خيطًا على جانب فمها، مشدوهة تائهة، لا تبكي ولا تتكلم ولا يطرف لها جفن، وأُمها تجري بين الخيام، تفتح كل خيمة وتسأل: «هل رأيتم سعدية؟». تفتش خلف صناديق القمامة وتمسك سور المُخيم وتصرخ: «سعدية تعالي، نحن غرباء هنا، فلا تبتعدي يا حبّةَ عيني».

ضمَمتُ رأسَ يونا لصدري، فلم تقاوم؛ إذ لم تكُن هنا، كانت هناك، في تلك البقعة السوداء التي تتسحِقُ فيها القلوب وتسكن أقسى زوايا البرد والألم، لا تحسُّ بنبض قلبي ولا مسّ يدي على شعرِها، عيونها مخيفة، اكتمالُ الحزن فوق الوجه المفجوع، يُرعِب القلوب، فارتعَب قلبي. حاولتُ أنْ أُغمِض عينيها، مررتُ أصابعي عند أعلى جبهتها، ونزلت حتى أنفها لأُغمض الجفنين، لكنهما مثل بوابةٍ منزوعة الأقفال، ما إنْ تغلقها حتى ترتد فتنفتح. تركتها وذهبت إلى أمها لأعيدها إلى الخيمة، لعل يونا حين تراها تفيق من ذهولها الذي يحرق قلبي، لكن أُمها كانت أشد ذهولًا من ابنتها، ما إنْ رأتني حتى صاحت: «سعدية يا حسّون، ابحث معي يا ولدي وستجدها فأنتَ مبارَك وطيّب، ابحث معي». لم يحتمل قلبي كل هذا،

عندما عدت إلى خيمتنا، وجدتُ أمي تبكي الصغيرة، أو ربما تبكي خوفًا عليَّ من مصيرٍ مثله، جاءت إلى هنا لتدفَعَ عني الخطر، فإذا المخاطر أقرب ما تكون.

عمَّ الحزن المُخيم وساده الخوف المجهول، أصبحت تتردد الحكايات التي تنهش قلب كل أُم. «إنهم يختطفون الأطفال الذين يذهبون إلى المشفى من أبناء اليهود (السفرديم)، ويعطونهم ليهود (الأشكيناز) ليعوضوا حرمانهم من الأبناء». هكذا أصبح يردد كل مَن كان في المُخيم. لا أعرف هل ما رددوه حقيقة أم أقاويل؟ لكن سعدية لم تَعُد، ولا عادت جثتها.

تكررت مأساة أُم يونا مع أمهات كُثُرٍ، طفلٌ يمرض، فيأخذونه للمشفى، ثُم لا أحدَ يراه بعد ذلك أبدًا. حتى أصبحَت العائلات تخفي أبناءها إنْ أصابَهم المرض، ويتكتمون الأمر كأخطر الأسرار، فليشفَ، أو يمُت بين يدي أبويه، فإنَّ الحداة تنتظر في المشفى، لتخطف صغار الدجاج.

قضينا بالمُخيم أربعة أشهر، مرت كئيبة سوداء، لا ينيرها شيءٌ إلا قَبَسٌ من وجه يونا التي ما عادت تُقبِّلني ولا أقبّلها، نقلونا بعدها إلى (المستوطنة)، اختلطَت فيها صنوف اليهود، كان معنا مصريون وعراقيون ومغاربة، يهود العراق كانوا متذمرين، يقولون إنها أقل رفاهية وأدنى شأنًا من مستوطنات اليهود الأشكيناز، وإنَّ حياتهم بالعراق كانت خيرًا من إقامتهم بإسرائيل، المغاربة والمصريون كان لهم رأي مخالف

ليهود العراق، أما قوم أمي فكانوا صامتين لا يدلون برأي، وإنْ كانت وجوههم تدل على الرضا، أدهشَتهم روعة المنازل ورفاهية الحياة فيها، يكفي أنَّ بها كهرباء وأجهزة لم يرَ أحد مثلها في اليمن قط. سألتني أمي: «أسعيدٌ أنتَ بهذا البيت يا حسّون؟». قلت لها: «هو بيت جميل، لكنني لا أحبه وأشعر أني غريبٌ فيه». رضِيَتْ أمي بجوابي، كنت أعرف أنها تختبر ولائي لبيتنا في اليمن، فأجبتها بما يرضيها، ولم أكُن كاذبًا، طيلة السنوات التي قضيتها بأرض فلسطين لم أشعر بها وطنًا، والحقُّ أني على امتداد القرون لم أشعر بولاءٍ لأي أرضٍ فوقَها سماء.

أعطت السُلطات جدّي راتبًا شهريًّا للإعاشة، قال جدّي إنه قليلٌ، لكنه يكفي. ربما قالها حتى لا يقرّ بعجزه، فماذا يفعل صانعُ الخناجر هنا؟! رقّت يداه وصارتا ناعمتين، كثيرًا ما كان يبسط راحتيه ويقول لأمي: «صارت يداي كأيدي النساء يا صفية». حزنت أمي عليه وأشفقت على حنينه لليمن، فأشارت عليه: «يا أبي الناس هنا غرباء، ما عاد يربطهم باليمن شيء، والغريبُ إذا وجد قَملةً من أرضه وضَعَها في رأسه، فلو صنعتَ الخناجر لأحبّها قومنا من يهود اليمن وأقبلوا عليها». أصابت فطنة أمي، فما من يهودي يمني إلا واشترى من جدّي جنبيَّة، ربما حنينًا لليمن، وربما انتقامًا منه، حُرِموا طويلًا من وضع الخناجر على خواصرهم، واليوم هم المنتصرون، ووضعُ الجنبيَّة دليلٌ لا تخطئه العيون.

استعاد جدّي عافية روحه السقيمة، لم أرَه فرِحًا بصنع الخناجر في اليمن، مثلما رأيت فرحته في إسرائيل، لكن فرحته لم تَطل إلا لبضعة أشهر، أعلن القائمون على إدارة المستوطنة عن قائمة يحظرون فيها بعض الأمور، وكان على رأس المُحرمات التي أعلَنتها الإدارة: كل عادة عربية جاء بها اليهود من بلادهم الأصلية. مُنِعَ يهودُ العراق من غطاء الرأس، وحُرِمَ يهود المغرب من جلبابهم، كما حُرم قومي من وضع الخناجر فوق الخاصرة، أرادوا استخلاصَ اليهود كشعرةٍ من العجين العربي. أخفقَت إدارة المستوطنة، ولم تحقق مرادها، تمسَّك اليهود العرَب بما ورثوه، إلا جدّي. استجاب لهم وآثَرَ السلامة، فلم يَعُد يصنع الخناجر، وعمل أجيرًا بإحدى المزارع على ضعفه ووهنِ عظامه.

لم يكُن لي من صاحب في المستوطنة إلا «زكريا الزبيدي». كان من يهود العراق، تعرفت إليه في المدرسة التي أخذونا إليها، جمعنا فصلٌ واحد؛ إذ كنا في الفصل الوحيد المُخصص للذين يحسنون القراءة، بينما كل صفوف المدرسة كانت للأُميين. كان زكريا من يهود بغداد الميسورين، وأنا من فقراء اليمن، كان وسيمًا ولم أكُن كذلك، يتحدَّث مع الناس بغير حرج، وأتحاشاهم بغير سبب، ومع ذلك كان مثلي بلا رفيق. جاء إليَّ يومًا في فناء المدرسة وكلمني، فلم نفترق بعدها، أصبحَ يمرُّ عليَّ كل صباح لنذهب معًا إلى مدرستنا، ثُم نعود معًا وأيادينا متشابكة، أوصله إلى بيته، فيضع حقيبته ثُم يوصلني إلى بيتي. جمعنا أيضًا أنه كان مثلي هزيلًا، فلم يتمَّ ضمُّنا إلى فِرق الرياضة القتالية، لكن الأمر لم يستمرّ طويلًا؛ إذ أخذوا الجميع إلى مُخيم السلاح لنتعلم إطلاق النار، لم أكره بحياتي صوتًا مثل صوت الرصاص، الشابُّ الذي يُدرِّب الصبية على إطلاق النار، كان هو نفسه الذي يعلِّمُنا قواعد اللغة العبرية، ويُدرِّسُ لنا التاريخ في المدرسة، قلتُ له: «لا أقوَى على حمل البندقية». يئِسَ مني وتركني بعدما حاول تشجيعي مرة بعد مرة ولم أستجب، حاول زكريا جاهدًا أنْ يتعلم إطلاق النار ولم يستطع، فشل رغمًا عنه، وفشلتُ بإرادتي. لكنهم لم يستسلموا تمامًا، علمونا أسماء أجزاء السلاح، وكيفية تفكيكه ثُم تركيبه، وأصرُّوا على أنْ نشاهد مَن يطلقون الرصاص، حتى لو لم نشارك معهم. كرهتُ

الأمر كله، وعندما علمت أمي أنهم يدربون الصبية على القتال، قالت: «لن تذهب إلى تلك المدرسة بعد اليوم».

عرفَت أُم زكريا بقرار أمي من ولدها الذي لم يحفظ السرّ، فأخبَرت إدارة المدرسة إنَّ أمي هي مَن تمنعني. جاء رجلٌ من إدارة المدرسة إلى بيتنا يسأل عن سرّ تغيبي، فقال له جدّي إني مريض لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة. ثُم تكررت زيارتهم بعد أسبوع، وقفت سيارة أمام بيتنا، نزل منها الحاخام باروخ ومعه رجلان غريبان لا نعرفهما، استقبلَهم جدّي، وعرفَت أمي أنهم جاؤوا لأجلي، فلم تنتظر أنْ يردَّهم جدّي مرة أخرى، دخلت عليهم وقالت بغير ودٍّ:

- ماذا تريد يا باروخ؟

تمعَّر وجهه عندما سمع اسمه مُجردًا عن لقب الحاخام، لكنه لم يُعقب على ذلك وسألها:

- لماذا تمنعين حسّون عن المدرسة يا صفية؟

- لم أترك اليمن لأنجو بنفسي، بل خوفًا عليه وحدَه، ولن أدعَكم تُعلّمونه القتلَ وضربَ الرصاص.

- إنه في وطنه وأرضه، دعيه يتعلم ما يتعلمه أبناء إسرائيل.

- حسّون يمنيّ، وسيظل. حملتمونا إلى هنا بالخوف والقهر ورضينا، لكن ورب موسى لن يتعلم ولدي ضرب الرصاص، ولن أجعل منه قاتلًا ولو قتلتموه وقتلتموني.

- ما زال ولاؤك لأبيه الكلب الذي نجّسَك يا ابنة حزقيال.

مشَت أمي إليه كلبؤةٍ غضبَى، استعرت النارُ في عينيها لما سمعت سبّهُ لأبي، رفعت يدها وصفعته على وجهه وهي تقول:

- لا كلبَ سواك، والنجاسةُ في قلبكَ أنت. اخرج من هذا البيت، وإلا قسمًا برب موسى وهارون لأذبحنَّك في مقعدك هذا.

فغادروا من فورهم، وهم يتعثرون ببعضهم، ويتسابقون نحو البابِ هربًا.

أصابتني الرهبة من وجه أمي، ولم أشك للحظة في عزمها على ذبحه بغير تردد، وأيقنتُ أنَّ لي أُمًّا قادرة على حمايتي من كل شيء.

لزمت البيت لا أجد ما أفعله، لا يُسلّيني شيء إلا زيارة زكريا من وقتٍ لآخر، حتى أخبَرنا جدّي إنَّ «عمران بن موشيه» يريدني أنْ أساعده في دكانه الذي افتتَحه بالمستوطنة، وافقت أمي أنْ أعملَ في دكانه، بعدما علمت أنه من يهود اليمن، حينها عرفت أني كبرت، حتى إني أجلب من «الشيكلات» في أسبوع واحد، أكثر مما كانت تجلبه خناجر جدّي في شهر.

مر عامان لا أفعل فيهما شيئًا إلا إنفاذ وصايا أمي، ومراقبة شيخوخة جدّي، وزيارة زكريا بعد العمل، يأتيني أو أذهب إليه، لم تمنعني أمي عنه رغم كراهيتها لأُمه التي وشت بنا، تدرك أني وحيد لا صاحب لي، فلم تمنعني عن رفيقي.

على ضآلة جسدي وقلة خبرتي بمعاملة الناس، فإنني أصبحت أكثر وعيًا، وأبعد فهمًا لما يدور حولي، أفكّر في كل شيء، وأبحث عن أجوبة لألف سؤال يدور بعقلي.. لمَ أنا هنا؟ كيف يكون الأمر لو أني مُسلمًا خالصًا أو يهوديًّا صِرفًا؟ مَن صاحب تلك الأرض حقًّا؟ إذا تقاتل مُسلم فلسطيني مع يهودي يمني، فهل سأكون في صف قوم أمي أم قوم أبي؟ إذا كان حقًّا كل اليهود من أصل واحد، فلماذا أرى يهودًا سُودًا كأنهم الفحم، وآخرين بيضًا كالثلج؟ ما الأشكيناز وما السفرديم؟ ولماذا هذه الأسماء الغريبة على أذني؟ ماذا، ولِمَ، وهل، وكيف.. أسئلة تلسع عقلي وتصعقه كبروقٍ تومض وتختفي، أهتدي للجواب حينًا، ثُم أنقلبُ على ما اهتديتُ إليه، تيهٌ لا يزول، وحيرة لا تنتهي، غيرَ أنَّ هذه التساؤلات التي لا جواب لها، كانت ملاذي لتخفيف وحدتي الخانقة، وطريقتي لتمرير أيامي الطوال التي تتشابه كلها.

مِن بين كل الأشياء العجيبة من حولي كان «اليهود العرب» أكبر أحجية لم أفهمها، كانوا خائفين على الدوام، كأنهم يريدون أنْ يدفعوا تهمة عن أنفسهم، يريدون إثبات ولائهم الجديد، فكانوا الأكثر تحمُّسًا للقتال والأسرع في انضمامهم للجيش، في سنوات قليلة تغيَّرت ألسنتهم، فما عاد يمنيّ ولا عراقي ولا مغربي ولا مصري يتحدَّث العربية، صارت العبرية هي صوت الجميع، عدا الشيوخ والعجائز، عجزت ألسنتهم عن تبديل أماكن «الباء» و«الراء».

عندما كنت أزور زكريا في بيته، كانت جدّته تأتي لتجلس معي، تتلهفُ لمَن تتحدّث إليه بعربية تعرفها؛ إذ منعتها ابنتها من التحدّث بغير العبرية، وأمرت ابنها زكريا أنْ يُعلّمها كل ما يتعلمه في المدرسة، وعندما تراها تتحدّثُ معي بعربية مشتاقة، تنهرُها بقسوة، حتى تبكي العجوز. كرهتُ أُم زكريا كما كرِهتها أمي مِن قبل، وأصبحت أتجنب العجوز في حضرتها، حتى لا يمسّها شرّ ابنتها، فإذا غابت عن المنزل خلوتُ بالعجوز، أُحدّثها شفقَةً عليها، وتُحدّثني شوقًا للسانها الذي لم تعرف سواه. ثُم لم أعُد أذهب لزيارة زكريا إلا نادرًا، كراهيةً لرؤية أمه.

لزم جدّي البيت، بعدما سقط في المزرعة لا تحمله قدماه، نخرت السنون عظامه، فما عاد يقوى على حرث ولا حصاد، فصرفه صاحب المزرعة بعدما أعطاه زجاجة في حجم كفٍّ طفل، من زيت الزيتون. كان جدّي يبكي كثيرًا ويقول: «كنتُ أزرع وأحصد وأعصر الزيتون، ثُم صرفني مثل كلبٍ عن مزرعته، وأعطاني زجاجة زيت أدلّك بها ركبتَيّ، يا له من حقيرٍ رحيم!».

كان لعمران صاحب الدكان بنتان، «ميرا» و«سارة»، سارة كانت طفلة لم تتجاوز السابعة، أما ميرا فكانت في التاسعة عشر. سارة كانت جميلة كأبيها، ميرا ورثت عن أُمها السِمنة والدمامة، لم أحبّها ولم أكرهها، فمُها الضيق وأسنانها غير المنتظمة تذكرني أني خسرت كثيرًا، حينَ فقدت يونا الجميلة، رغم تتابع الحوادث وانشغالي بالعمل لم أستطِع نسيانها، وددتُ لو أني لم أرَها قط بعد أيامنا في المُخيم، لتظل ذكراها نقيّة في قلبي، فجعَتني رؤيتها مرة بعد مرة في الحدائق المهجورة وأنا

عائد من عملي، كل ليلة أراها بين يدَي يهوديّ غريب، من أولئك الرجال زرق العيون بيض الوجوه. عندما قابلتها يومًا في وضح النهار، تفلَّتت بسمة من قلبي، وتسللت إلى شفتي، لكن يونا لم تبتسم، أعرضَت عني كأنها لا تعرفني، أو لعلها تعرف أني أعرف، فحجبَها الخزيُ عني. حين أخبرتُ أمي إني رأيتها قالت: «لا شأنَ لك بها ولا تُكلمها أبدًا». ظننتُ أنَّ أمي عرَفَت ما عرفتُهُ عن يونا، لكن جدّي أخبَرني بأمر آخر، قال لي: «لا تحزن، أمك تخاف عليك من بنت الفاجرة، أُمها جعلت بيتها فراشًا للزنا، لو حزنت على صغيرتها حقًّا لما صارت داعرة». فقلت: «بل لعله الحزن على طفلتها، هو مَن فعل بها ما فعل». لم أعُد لذِكر يونا بعد ذلك قط، أغلقتُ قلبي دونها، فلم أعُد أراها.

خمس عشرة سنة مرت علينا، تغيّر فيها كل شيء من حولي، جدّي يزداد ضعفًا، وأمي تُوغل في غربتها أكثر، ما عادت تخرج للمعبد ولا تواد أحدًا، لا تزور ولا تُزار، زكريا أصبح ضابطًا في الجيش، والحاخام باروخ صارَ له سلطانٌ كبير وكلمة تسوق الجميع، المستوطنة زاد سكانها وازدحمت طرقها، وكلما زاد الناس هنا؛ زاد ارتفاع الأسوار من حولنا، لم نكُن نعرف الأسوار في اليمن حول بلدات اليهود وقراهم، لكنْ ها هنا دومًا سورٌ وسرداب، وخوفٌ لا يزول، أهل المستوطنة يرددون دومًا إنَّ الفلسطينيين يتربصون باليهود في كل مكان، كثيرًا ما يصحو الناس على خبر قتيلٍ وجدوه على أطراف بستان، أو مُلقى على جانب طريق، العرب يكرهون كل يهوديّ ويستبيحون دمه، لا يفرقون بين رجل وامرأة، ولا تميز خناجرهم بين ظهر يهودي عربي، ويهودي غربي، فارتفعت الأسوار

لتحجب هؤلاء، عن غضب أولئك. أصبحتُ أخافُ اليهودَ والعرب على حد سواء.

ورغم مضي السنوات واستقرار أمرنا في إسرائيل، فإننا ما زلنا نشعر بالغربة في كل زاوية من حولنا. لكننا رضينا بالأمر. فلم نكُن نبغي إلا أنْ نسلم من الأذى، لكنها كانت أُمنية بعيدة المنال. أعلنت إسرائيل الحرب، وكلما انطفأت حربٌ؛ قامت في إثرها أخرى، اجتاحَ قومُ أمي بلاد العرب من حولنا، وفي ستة أيام هَزمَت إسرائيلُ جيوشَهم، وامتلكَت أرضهم في مصر وسورية وفلسطين، في ستة أيام أقام الله مُلكه، وفي ستة أيام أقام قوم أمي دولة، فَرِح كل يهودي، إلا أمي، مضغها الحزن، كانت تخجل من ذكر هزيمة العرب، فأبي عربيّ. وجاءت بعدها حرب «يوم الغفران» وانتصر العرب. حَزِنَ كل يهوديّ، وفَرِحَت أمي. كأنما قد اعتذَرت لحبيبها، بهزيمة قومها، على يدِ قومه. حربٌ بحربٍ، وهزيمةٌ بهزيمة، متعادلان. وأنا مثل رياح لا تنتمي لأرض، ولا تعرف لرحلَتِها قِبلة. أمُرُّ ولا أمكث، أشاهدُ ولا أشارك، حارَبوا ولم أحارب، انتصَروا ثُم هُزموا، وأنا قاعدٌ مع القاعدين، فما زال وجهي وجهَ طفل، وجسدي جسدَ غلام صغير، لا نفع به في حرب ولا سِلم.

تمرُّ السنوات وأنا لا همَّ لي إلا أنْ أنفق على أمي وجدّي، أنتقلُ من عمل لعمل، دون أنْ تكون لي حرفة أتقنها أو مهنة أمتهنها، فلا أنا تاجرٌ كأبي، ولا أنا صانعٌ كجدّي، وفي غمرة الحوادث ومرور السنوات نسيتُ القرآن كما نسيتُ التوراة، لم أعُد أُصلي، لا ليَهْوَهْ ولا لله، لا قِبلَة لي، لا إلى مكّة ولا إلى أورشليم. حتى جاوزتُ الأربعين من عمري، ولي هيئة

فتى بالكاد بلغ الثامنة عشر، العجيب أني لم أشعر قط أنني أصبحتُ رجلًا، لا أستقر بعمل ولا أفكر في زواج ولا أعرف لمستقبلي وجهةً، أمي لم تعاملني يومًا إلا كغلام، إنْ لم تحمِه بنفسها أصابته المهالك، والناس من حولي لا يرون أني صرت رجلًا أو لا يقرون بهذا، ربما لأنَّ الاعتياد يُعمي البصر فلم ينتبهوا لوجهي الذي لا يتغير، الغرباء وحدَهم يرون، ولذا كنت أتجنَّب الغرباء ما استطعت، أو أخفي عنهم حقيقة عمري إذا اضطرني الأمرُ أنْ أخالطهم خارج المستوطنة.

جاوزَ جدّي الثمانين من عمره ونكَّسَهُ الرب في الخلق، فصارت جدران جسَدِه تتداعى، كان حزقيال جدّي وأبي، وكان واسطتي التي لا تخيب حين تحتدُّ أمي وتبالغ في حمايتي، فيذهب إليها ويطلب منها أنْ تخفف من خوفها ولا تكبّل حريتي، فتستجيب له، كنتُ عُكازَه وكان درعي. عندما كُنا باليمن، كان يرجو أنْ يُؤمِن قلبي باليهودية وحدها، ولا يرضى بنصفي المسلم إلا مراعاة لخاطر أمي، بعد هجرَتِنا لإسرائيل لم يَعُد يعنيه الأمر، كان غاضبًا هو الآخر مثل أمي، يذكر مُعلمي داوود حين يخلو بي ويقول: «الآن أصدّقك يا حسّون، وأعرفُ مَن قتَلَ داوود. ليس هكذا قال الرب يا بني، ولا بمثل هذا أمَر». لا أدري أكان حينها يعتذر إليَّ عن قتل مُعلّمي الذي تعلّق به قلبي، أم كان يُبرئُ التوراة حتى لا آخذها بذنب القتلة؟!

رغم ضعف جدّي فإنه كان يحرص على الذهاب إلى المعبد، وعندما تطلب منه أمي أنْ يستريح في البيت ولا يرهق نفسه، لا يستجيب لها ويقول: «لم أعجَز بعد يا صفية». يكذب، فقد ضربَه العَجز، ونحن نساعده على تصديق كذبته، شفقة عليه، فلم نمنعه عن المعبد، أذهبُ به وأتركه هناك حتى منتصف النهار، ثُم أعود به إلى البيت، يومًا قال لي ونحن في طريق عودتنا:

- اذهَب إلى المعبد غدًا، باروخ يريد أنْ يلقاك هناك.

- ما الذي يريده مني باروخ؟

- لا عِلم لي يا بني، لقد طلب مني هذا من قبل ولم أخبرك، وعندما سألته ماذا يريد، لم يُجِبني بشيء، وجاءني اليوم وألحَّ في طلبك، لكنه هذه المرة قالها بصوت لا يخلو من التوعد، فاذهب إليه لنعرف ماذا يريد.

- لن أذهب إليه يا جدّي، ليس هناك وجه خلقه اللّه، أبغَض إليَّ من وجه باروخ.

- إنَّ له اليومَ سلطة لا قوة لنا على ردها يا بني، وإني أكرَه ما تكره، لكنه هدّدني، إنْ لم تذهب إليه أتوا هم بك، فاذهَب واسمَع منه ولا تجِبه، كُن أُذنًا بغيرِ لسان.

أشفقت على ضعف جدّي وخوفه، وذهبت إلى باروخ في اليوم التالي، ما زال كما هو منذ عرفته في اليمن، نظرته المرعبة وصوته الذي يسحب الأمان من العروق، لا شيء فيه تغير. جلست أمامه بغير كلام، فقال لي:

- كبرتَ يا حسون.

- كل الناس تكبر.

- فلماذا لا يظهر عليك الكِبَر ككل الناس؟

- مشيئة الرب، وهو يصنع ما يشاء.

- نعم. إنَّ للرب فيك مشيئةً منذ مولدك، بل منذ حبلت فيك أمك، أخبرني كم أصبح عمرك يا حسون؟

- خمسٌ وأربعون سنة.

- خمسٌ وأربعون سنة! قضيتَ منها في إسرائيل ثلاثين سنة أو يزيد، ولا أثر لك. حاربنا العرب وهزمناهم، ولم تكُن معنا، حاربتنا مصر وهزمتنا ولم تكُن معنا، اجتاح جيشنا لبنان وأنت جالس بجوار أمك، نقاتل العرب كل يوم ويقاتلوننا وأنت عالة لا تشارك في حرب ولا تدافع عن وطن، ألستَ يهوديًّا مثلنا؟

- بلى، لكن أحدًا لم يطلبني للحرب ولا لغيرها.

- الآن نطلبك، كُن معنا وسيكون لك شأنٌ عظيم طال انتظاره، إنْ أطعتني سأجعل لك ما لم يكُن ليهودي من قبل ولا من بعد.

- أنا لا أطمع في شيء، ولا أريد إلا أنْ أعيش بأمان، ما لي والحرب والمعارك؟

- لأنك تحيا هنا، ولن تعيش هذه الدولة بغير الحرب، لن يتحقق الأمان لأي يهودي فيها إنْ توقفت المعارك.

- الجميع أصبح يتحدث عن السلام، لستَ المُخْلِص الوحيد هنا.

- السلام! هذا تحديدًا هو الذي سيقضي على دولتنا، هل ترى شيئًا يجمع بين شعبنا؟ أي شيء غير اليهودية؟! أجناسٌ تختلف، سودٌ وبيضٌ، عربٌ وعجم، لا شيء يجمعنا إلا الأسد الذي يتربص بنا، الخوف وحده هو الذي يحفظ هذه الدولة، فإنْ زالَ خوفها زالت. وهؤلاء الذين يتحدثون عن السلام هم أخطر على إسرائيل من أعدائها، إنهم يحفرون قبر أمتهم بأيديهم، ما الذي سيجمع الفرقاء إنْ زالَ الخوف؟

- ولماذا يجب أنْ نخاف، لا شيء ينقصنا، فلماذا لا نحيا بسلام؟!

- لأننا أُمة تحتضر، انظر إلى الفلسطينيين من حولنا، يتناكحون ويتناسلون كالأرانب، ورحم إسرائيل عاقر. إذا حلّ هذا السلام عاشوا بيننا وعشنا معهم، وما هي إلا سنوات حتى يفوقونا عددًا أضعافًا مضاعفة، وحينها تذوب إسرائيل كقطعة ملح في بحر من العرب، والحرب وحدها هي ما تجعل هذه القطعة عصية على الذوبان.

- وهل يجب أنْ أعلن أنا هذه الحرب؟ أنا لا قدرة لي على فعل شيء، ولا أكترث لما تقول، فماذا تريد مني؟

- أنْ تصبح واحدًا منا، ستكون معنا في حركة «كاخ»، تعرفها ولا شك، نحن أمل اليهود الذين سيقيمون الشريعة، لتستقيم دولتنا على عهد الرب، وستكون أنت الدليل على الحقيقة المنتظَرَة، لقد تحدثت مع الحاخام «كاهانا» وعندما أخبرته بأمرك، رأى فيك ما رأيته.

- لا شأن لي بما ترون، ولا فائدة مني في حروبكم ومعارككم، يعنيني فقط رعاية أمي وجدّي.

- أنت لن تقاتل، ولن يمسّك سوء، وسنكفل لك رعاية أهلك ونزيد.

- إذًا، دعني أعود إلى أمي، ثُم أنظر في أمري.

- عُد إليها، لكن ستفعل ما أمرتك به، قبِلَت أمك أو رفضت.

ارتعبت أمي عندما أخبرتها بما طلبه مني، وقالت: «لا بُد أنْ نهرب من هنا». أخبرتني إنَّ لها قريبًا يعيش في (تونس) ويمكن أنْ نذهب إليه. استخرجنا جوازات للسفر، وعندما عزمنا على الرحيل منعونا؛ إذ كانت أسماؤنا مدرجة على قوائم الممنوعين من السفر، استخدم باروخ قوة حركته، وجعل السلطات تخضع لأمره، كان يعرف أننا سنهرب فسبقنا بخطوة وأعدَّ للأمر عدته، ما عاد الخروج من إسرائيل مُمكنًا، فقررنا ترك المستوطنة والرحيل إلى أي مكان، بعيدًا عن الحاخام. عشر سنوات ونحن ننتقل من مدينة إلى مدينة، حتى لا ترصدنا العيون التي يبعث بها باروخ في إثرنا، ذهبنا إلى (تل أبيب) ثُم انتقلنا إلى (القدس) وكلما شعرنا بالخطر رحلنا إلى مكان جديد، حتى استقر بنا المقام في مستوطنة (كريات)، وهناك أحاط بنا باروخ فلم نجد مهربًا.

عندما علمَ باروخ بوجودنا في مستوطنة كريات، لم ينتظر ساعة واحدة، أرسل إلينا خمسة من الجنود اقتحموا علينا مسكننا، كأننا مجموعة من اللصوص، وأخذوني إليه. أدخلوني إلى غرفة لا نوافذ لها، وتركوني لساعتين بمفردي، ثُم دخل باروخ إلى الغرفة ومعه ثلاثة من الحاخامات، عراقي وغربيان من أصحاب البشرة البيضاء زرق العيون.

www.maktabban.blogspot.com

تحدثوا إليَّ بالعبرية، فلم أشأ إزعاجَ كراهيتهم بنطق العربية، فتكلمتُ معهم بلسان يُذكّرهم أني منهم. كانوا يحدّقون بوجهي وهم صامتون، نظرة الارتياب في أعينهم أخبرتني إني لن أنجو منهم، وبعد دقائق من الصمت المُخيف، سألني باروخ بودٍّ كاذب:

- كيف حال أمك؟

- طيَّبَها الربُّ، ما زالت بخير حال.

ثُم سألني العراقي:

- كم عمرك؟

- خمسٌ وخمسون سنةً.

قال أحدُ الغريبين:

- وجهُكَ وجهُ غلام لم يبلغ العشرين، لماذا لستَ تكبر؟

- سَلِ اللّه يُخبِرك.

أغضبه ردِّي، وتململ في مجلسه لكنه لم يعقّب على جوابي. قام باروخ عن كرسيه وسألني:

- هل تراودك الرؤى يا بُني؟

- كلُّ نائم يحلم.

- وبماذا تحلم؟

- أضغاث أحلام، أراها ثُم أستيقظ فلا أذكر منها شيئًا، وأحيانًا أحلم بمُعلمي داوود الذبيح.

طفحَ الغضبُ من وجهه لما سمع اسم مُعلمي داوود، وأخرسه الغيظ، فسألني الغريب الثاني:

- هل رأيتَ الرب في أحلامك أو سمعتَ صوته يا بُني؟

- لا.

عاد العراقي وسأل:

- هل حقًّا حبلت فيك أمك سنتين وسبعة أشهر؟!

- هكذا قالوا.

- وهل تُصدق قولهم؟

- أُصدق أمي.

- وماذا قالت أمك؟

- قالت إني سكنت رحمَها عامين وسبعة أشهر.

أشار باروخ بكفّه إلى الحاخام الغريب فسكت، ثُم نظر إليَّ وأشار بسبابته إلى وجهي وسألني:

- أبوك كان مُسلمًا وأمك يهودية، فأي الدينين في قلبك؟

- دين الله.

- أيهما؟

- أتقرُّ إذًا أنَّ لله دينَيْن؟!

- «لا»، لا دين في الأرض إلا ما جاء به موسى، ومحمد كذّاب.

- فلماذا تسألني عن دينيْن؛ إذ ليس سوى دين واحد لله في الأرض؟!

- «لا تراوغ». هكذا قال الغريب الأول مُقاطعًا حديثي مع باروخ. قلتُ له:

- لا أراوغ، أمي يهودية وأبي مُسلم، نظرتُ فلم أجِد فارقًا بينهما، كتابٌ وكتابٌ، قرآنٌ وتوراة، كلاهما يُمجّد الرب ويُعلن أنه إلهٌ واحد، لا فرق سوى أنه ها هنا اسمه يَهْوَهْ، وهنالك اسمه الله، اسمان لإلهٍ واحد، وأنا أعبد ذات الإله وإنْ تعددت أسماؤه.

- أنت تُجدّف على الرب!

- لا أُجدّف، أقول ما في قلبي، ما ذنبي إنْ كان لي أبوان لكل منهما دين غير صاحبه؟!

عاد باروخ إلى التكلم، قائلًا:

- ما زلت أسألك عن رؤاك فأخبِرني بها.

- ما الذي يعنيك في هذا؟! كلها رؤى كالتي يراها الناس، ولا أجد فيها أمرًا يستحقُّ الذِكر، إلا رؤيا واحدة رأيتها وأنا طفل أعيش بغرقة القليس، رأيتها وأنا نائمٌ في حفرة الكنيسة البائدة.

ليت لساني لم يزِلّ، لا أعلم ما الذي جعلني أذكر رؤياي أمامهم، وأنا الذي كتمتها عن كل إنسان حتى أمي، ولم أخبر بها أحدًا سوى يونا عندما كُنا أطفالًا في المخيم. هل يمكن أنّ تكون يونا هي مَن أخبرتهم، فألحوا عليَّ في أمر أحلامي ليستوثقوا منها؟ أم أنَّ شيطانًا ألقى بها على لساني أمامهم، ليكمل القدر بلائي؟ وأيًّا كان الأمر فقد جلبتُ على نفسي المهالك كلها، فما أنْ نطقت بها حتى قال الأربعة بصوتٍ واحد:

- أخبِرنا ماذا رأيت؟

أخبَرتُهم. فشقَّ باروخ رداءه ورفع يديه للسماء وقال:

- قسمًا بالرب، وقسمًا بالعصا والتابوت إنه لَهُوَ، هو «المسيحُ المُخَلِّص»، قالوا إنه لا دولة لليهود إلا بعودة المُخلِّص، وها هو ذا يقفُ بين أيديكم، يسكنُ دولتَكم، ويحيا بينكم، شربَ الدمَ من كأسِ موسى، وحفظ الرب جسده فلم تَجْرِ عليه السنوات بما تَجري به على الناس، حفظه وأخفاه عن أعين الأغيار، وغدًا يشتدُّ ركنه، فنُعلنه لكل اليهود، ليُقدس دولتكم، ويذبَح أعدائكم.

ركعَ العراقيُّ والغريبان أمامي، ولم يركَع باروخ. وأنا أنظرُ إليهم وقلبي وجيبٌ يكاد أن ينخلع من صدري خوفًا، وددتُ أنْ أقول لهم: «لكنني

شربتُ من كأس محمد مثلما شربتُ من كأس موسى، فلماذا تمسكتم بهذه وأهملتم تلك؟!». أردتُ أنْ أصرخَ فيهم: «لستُ المسيحَ المُخلِّص، أنتم واهمون». لكنني جَبَنْتُ وأخرسني الفزع، فلم أنبس بكلمة.

أصبحت الأيام لطيفة كريمة، أهنأ فيها بالقرب من أروى، حتى نسيتُ كل آلامي، غسل الحبُّ قلبي من الحزن وعقلي من المخاوف، عشقت، فما عدتُ أكترث لمَن يبحثون عني، ولم يَعُد يُقلقني شيءٌ إلا حديث أمي عن الرحيل إلى تونس، كبرياؤها كانت تشغلها كل الوقت، تكره أنْ تظل نزيلة ببيت رجل لا حقَّ لها عليه، وتريد رفع الحرج عن أسرة بالكاد تجد ما يكفيها، عادت مرة أخرى تحدثني عن قريبها الذي يعيش بتونس منذ زمن بعيد، وتحثني على الرحيل بعيدًا عن الذين يطاردونني. لم أجرؤ على إخبارها إنَّ قلبي صار مُعلّقًا بجدران بيت سليم الأدهم، لأنَّ بين جدرانه أروى، والحقُّ أنها لم تكُن بحاجة لأخبرَها، دائمًا تعرف أمي كل شيء. قالت بغير مواراة: «يا بنيّ أعرف أنك تُحبها، وما كنتُ يومًا لأرفض الحُب وما كان ما نحن فيه إلا لأني أحببت، لا أقول أخشى عليك من شقاء كشقائي، لكن أخشى على قوم كرام آوونا، أنْ يصيبهم الأذى، فلا تؤذِ مَن أحبَّك».

أعادتني كلمات أمي إلى مأساتي التي لا ذنب لي فيها، لأول مرة أردتُ، كانت أروى هي ما أريد، لكن أمي مُحقة فلا ذنبَ لها لتحيا مع رجل بوجه غلام، له دينان، ووطنان، ولسانان، وكلهم يصطرعون فيه وعليه، هُزِمَت قصتنا قبل أنْ تبدأ. لن يقبل أهلها أنْ أتخذ ابنتهم زوجة، ولن يأمنوا عليها مع رجل كل مَن ساعدَه قُتِل.

لم تَطُل حيرتي بين البقاء والرحيل، القدر حسم الأمر وقال كلمة الفصل. جاءت الطامة الكبرى حين قرر ثلاثة من اليهود بينهم صديقي القديم زكريا، أنْ ينتقموا من العرب الذين اختطفوا مسيحَهم المُخلِّص،

دخلوا إلى مسجد الخليل في الفجر والناس يُصلُّون، فحصَدوهم بالرصاص وهم سجود، فاجتمع عليهم مَن بقيَ حيًّا في المسجد وقتلوا ثلاثتهم، وأُصيب الشيخ سليم في من أُصيبوا بالمسجد، جاء به ابنه عمَّار يحمله، وقَدَم عامر من غزة بعدما عرف بالمذبحة.

اشتعل الغضب في البيت، كما اشتعل في كل مكان. كانت عيونهم تتهمني، ليس لأني كنت السبب، وعنّي جاؤوا يبحثون، ولأجلي أتوا يَقتلون، إنما كانت تُهمتي أنَّ نصفي يهوديّ، لم تقُل ألسنتهم شيئًا، لكن قول العيون أوقعُ صوتًا وأشدُّ إيلامًا. وحدها أروى عطفَت عليَّ، والشيخ سليم. عادت أُم عامر لتجنُّبي، وعامر لا يُكلمنا، ولا يجلس إنْ جلسنا معهم، وعمَّار حائر بين حبّه لي، وغضبه من قوم أمي. صعَدَت إليَّ أروى وأنا أطعم الغنم، جلسَت بزاوية السطح ترقُبني وعيونها غارقة بسحابةِ دموع لا هطولَ لها، تحاشيتُ النظر إليها وشغلتُ نفسي بوضع العليق للغنم، فلما طال الصمت، جاءت إليَّ وقالت: «أحبُّك». فبكيتُ ولم أنطق بكلمة.

أُغلقَ الخليل، وجاءت دبابات قوم أمي لتنتقم لمقتل جنودهم الثلاثة. تترَّسَ أهلُ الخليل؛ فوضعوا السيارات المُعطلة على مداخل الطرقات الواسعة، ونصبوا حولها حصنًا من جذوع الشجر وعروق الخشب، وفي الحارات الضيقة وضعوا أكوامًا من الحجارة، وأجولَة مَلؤوها بالرمال، تسلَّح الرجال بالبنادق القديمة والسكاكين الكبيرة، واختزنَت النساء الحجارة، ليقذفن بها العُداة من فوق أسطح المنازل، الجميع يعدُّ للمعركة، وأنا بين الجميع حائر. لا أحدَ من أهل الخليل يعرف بوجودي أو يعرفني، قلتُ لأمي:

– سأخرج مع عامر وعمَّار، لن أدعهما يواجهان الموت منفردين، فما كانت هذه الحرب إلا لأجلي.

– أُمك يهودية ونصفُك مني، فكيف تقاتل أهلك؟

– وأبي مسلم ونصفي منه، سأقاتل دفاعًا عن نصفي، ضدَّ نصفي.

كنت أكذب، أردتُ أنْ أقاتل لأجل أروى وحدَها، أريد أنْ أقول لها أنا منكِ ومعك. ومَن يدري، ربما لو رأى أهلُها صنيعي رضوا بي زوجًا لها.

www.maktabbah.blogspot.com

قامت قيامة «الخليل» واشتعلت ناره، لكنها لم تكُن بردًا ولا سلامًا هذه المرة، بل جحيمًا يحرق كل شيء. قنابل قوم أمي، تسقط على رؤوس قوم أبي، طائراتُهم تحوم فوق المنازل تصبُّ الموتَ، لا تُفرّق بين طفل وشيخ، للجميع نصيبٌ من الحِمم والرصاص. وأهل الخليل ثابتون خلف المتاريس، يصدُّون الموت، ويردُّون عليه بموت. تهاوت المتاريس أمام قصف الدبابات، والتحم اليهود بالمسلمين، أبي في مواجهة أمي، وعليَّ أنْ أختار، لأيهما أُسدد الطعنة بذاك السكين الذي في يدي. قتالٌ في الشوارع، رصاصٌ آتٍ ورصاصٌ ذاهب، وحجارةٌ من فوق الأسطح بيد النساء والأطفال تهطل، وطائراتٌ من فوق الجميع تقصف، وأنا أقف بين الفريقين والسكين في يدي، أنتظر رصاصة خلاص من كل هذا، ولتأتِ من أي طرف تشاء، لكنَّ الموت جائر، لم يلتفت نحوي. رأيت عمَّار جريحًا يقاتل جنديًّا يهوديًّا بيديه، والجنديُّ جاثمٌ فوقه، يكاد أنْ يقضي عليه، وأنا أمام الجسدَين المُتقاتلَين أقفُ وأشاهد. صرخ عمَّار: «اُقتله، اطعنه».

فانتبهتُ للسكين الذي في يدي، يدي العاجزة، ولم أتحرك. جاء عامر يجري نحونا وقد أثخنَته الشظايا، فاختطفَ السكين من يدي وأنقذَ أخاه بطعنات لا أحصي عددها في ظهر الجندي وعنقه، ثُم نظر إليَّ نظرةً كانت أشد من كل طعناته في ظهر الجندي المُجندَل.

أربعةُ أيام من القتال، تراجعت كتائب اليهود بعدها حاملة قتلاها، وأعلنوا النصر، وفي الخليل أزيحت بقايا المتاريس ودُفنَ القتلى، وأُعلن النصر. انتصرَ «يَهْوَهْ» رب اليهود على العرب، وانتصرَ «الله» رب العرب على اليهود، وهُزِمتُ بينهما.

صرخ عامر في وجه أبيه: «اُطرده يا أبي إنه مثلهم، وقف يشاهد أخي وهو تحت يهودي من قومه، وما مدّ له يدًا والسكين بين أصابعه». فقال عمَّار: «بل خرج للقتال يا أبي، لكنه لا يعرف القتل». وهمسَت أُمهما: «العِرقُ دسّاس». وسكتت أروى. خرجَت أمي من غرفتها وقد سمعت قول كل قائل، فوقفت تُجلّلها الكبرياء قائلة بصوتها الواثق: «ابني ليس غدّارًا، ولا هو بجبان، لم تمتد يده يومًا بأذى ولا حتى لعصفور، فكيف يقتل؟ ابتلاه الله بما لم يبتلِ به أحدًا سواه فصبر، واحتمل ما لا تحتمله الجبال. سنرحل يا شيخ سليم، يومان أو ثلاث لا غير، ولن تروا لنا وجهًا هنا». بكت أروى، ونظر الشيخ سليم إلى ولده عامر بغضب وأمره: «قُم من أمامي». فقام. حاول الشيخ أنْ يقف لأمي فما استطاع، فقال لها: «يا صفية جئت بكما لبيتي وأنا لا أعرف ما وراءكما، ثقةً بصديقي إلياس، ولما قتلوه عرفت أنكما تستحقان أنْ أبذل لكما كل شيء، فما كان إلياس

ليُقتَل لشيء رخيص، وعندما نزلتما ببيتي اتخذت ولَدِك ولدًا، ولن أَكِلّ بحملِكما، فابْقِيَا هنا، ولن يمسّكما أذى من أهل البيت أو من خارجه ما دمتُ حيًّا». شكرت له أمي وقالت: «بارك الله لك، قُضي الأمر يا شيخ سليم، سنرحل». فهزّ الشيخ رأسه ولم يلحّ عليها في البقاء.

لزمتُ الغرفة مع أمي، لا أخرج إلا عندما يطرق الشيخ سليم بابها، أو تطرق أروى قلبي، فأفتح. يدعوننا للطعام فنخرج، لا يجالسنا عامر ولا أُمه، فقط الشيخ سليم، وعمَّار، وعيون أروى تراقب من بعيد. لقيمات نأكلها مراعاة لخاطر الشيخ الكريم، ثُم نعود إلى الغرفة لا يصاحبنا فيها إلا الصمت، فلا تتكلم أمي ولا أتكلم. وكلما استأذنَت أمي في الرحيل يقول لها الشيخ: «صبرًا حتى تهدأ الريح». ورياحُ الحرب لا تهدأ، مكثنا ننتظر هبوبَ نسائم الأمن في أرضٍ، يرصدُ الخوفُ فيها كل طريق.

قُمت ليلةً قبل الفجر، فتوضأت وصلّيت ركعتين لعل الله يرأف بقلبي ولا يحرمني من أروى، ثُم وضعتُ «الكيباه» على رأسي وصليت ليَهْوَهْ لعله يرقُّ لغربتي، وينجّي قلبي من التيه الذي ينتظره إنْ رحلت عن أروى. صلّيت له صلاتَين، أناديه فيها: «تعبت، فاجعَل لي مخرجًا». لكنه لم يستمع لي، دومًا أدعوه، ودومًا لا يجيب. يقودني لما يريد، ويحجِبني عما أريد، وكانت إرادته الرحيل. سَمِعَت أروى بكاء قلبي، جاءت إليَّ ووقفَت أمامي وأنا ساجدٌ على الأرض في الظلام، وقالت: «قم». فقمت. سألتني:

- تحبّني؟

- أنتِ دمي وعظامي وخفقُ قلبي.

- إذًا خذني معك ولا تدَعني.

- لن أكسر قلبَ أبيكِ.

- سيجبُرُه الله، فلا تدَعني.

- لن أخون.

فوضعَت يدها فوق رأسي وقالت:

- الآن قد خُنت.

تركتني، وعادت إلى غرفتها، فلم أرَها طيلة الأيام التي انتظرنا فيها فرصة الرحيل.

عندما جاء الموعد المُرتقب، دخل علينا الشيخ سليم وقال لأمي: «أوصيتُ صديقًا لي في غزّة أنْ يأخذكما إلى مصر، ومنها تذهبان إلى تونس». ثُم عرض على أمي مالًا نتقوّى به على الطريق، فقالت له: «معنا ما يكفي ويزيد». وعندما ألحَّ عليها، أخرجَت نقودًا خضراء من صندوق صغير وسط ملابسها وقالت: «معي مبلغٌ كبير ادَّخرتُه من قبل، وسيكفينا يا شيخ». فأقسم عليها أنْ تأخذ منه المال إنْ كانت تُقدِّر شيبَتَه، وقال: «حسّون ابني، ولا يردُّ الولد عطيّة أبيه»، فقبلت منه.

في اليوم التالي كان عمَّار ينتظر أمام البيت في سيارة ليحملنا إلى غزة، خرجَت أُم عامر فعانقَت أمي وبكت بعيون صادقة، ليس فيها مسحة من كذب أو ادعاء، ثُم قالت لي: «سامحني يا ولدي، لم أقصد أذيّتك». فقلت: «لا عليكِ يا خالة». بحثتُ عن أروى فلم أجدها بين المودّعين، منذ

الليلة التي وصمتني فيها بالخيانة وأنا لا أراها، سألت نفسي: «هل يمكن ألا تودعني أروى، هل يغلب الغضبُ الحب؟!». غَلَبَ. أشفقَت أمي على قلبي، فسألَت نيابةً عني: «أين أروى لأسلّم عليها؟». فقالت أُمها: «خرجَت أول الصباح إلى عمّتها، ووعدتني أنها لن تتأخر، لكنها تأخرت». فأمسكَت أمي يدي، وضغطَت عليها لتحبس الدم السائل من قلبي، لكنه نزَف.

www.maktabbah.blogspot.com

رحلنا عن الخليل، رحلَ جسدي وقلبي مَكَثْ، ما زال عالقًا بين الدجاج والغنم، يستجدي أروى، وأروى جنحَت لكبريائها الجريحة وكسرَت جناح قلبي. تغيّرَ وجهي بعدها، ذهبَ وجهُ الغلام وصار لي وجه رجل، كَبُرتْ.

عندما وصلنا إلى غزة لم نمكث بها غير ساعة نستريح فيها، ثُم أخذَنَا الرجلُ الذي استقبلنا إلى نفق طويل، أتعبَ أمي السيرُ فيه وأرهقَها، خرجنا من طرفه الآخر، فأصبحنا في سيناء. نزلنا في بيتِ رجل بدويّ كان ينتظرنا، قال لنا إنه يعرف وجهتنا وسيدلُّنا على الطريق، لكن مرضت أمي مرضًا شديدًا أقعدَها، لم تستطع شيخوختها مواصلة السيرَ المرير، الطريقُ ينتظرُ خُطانا، والأقدامُ ما عادت قادرة على بلوغ الغاية، فلم نغادر بيتَ البدوي. جلستُ بجوار الوجه الحبيب والموتُ معنا جلس، سألتها:

- ماذا يا أمي! ليس لي سواك فمَن سيصحبُني؟

- الله يا ولدي.

- كلهم تركوني وماتوا، لا تخذليني يا أُم، لا تموتي.

- أبوك زارني الليلة في منامي، وقال لي: «تعالي». لن أعصي أمره، وقد اشتقتُ إليه.

- وأنا؟!

- وا لهفي عليك يا حسّون، هو الله، يريدك يا بنيّ، فاصبِر حتى تبلغ مرادَه، فما كان الذي كان، إلا لأمر جليل، ولن يخذلك. لكنها حكمة الرب فلا يكشف عن غايته إلا بعد انتهاء الطريق، فسِر حتى تصِل.

- أتعبني السير يا أمي، ولست أريد شيئًا، اُطلبي منه أنْ يُوقف المحنة، ليس لي طريقٌ أسلكه، ولا غاية أطلبها.

- القضاء بيدِ من قضى، وليسَ بيدِ المقضي عليه يا ولدي. الآن بِتُّ أرى، ما أحببتُ أباك إلا لتأتي أنت، أنت مُرادُ الله، فلا تجزَع يا ولد، إنَّ جدّك هارون وجدّك محمد، فاصبِر يا ابن النبيَّيْن.

- لا صبر لي من دونك، فلا تموتي.

- سأموتُ يا بني وستمضي وحدَك. احملني بعد موتي إلى جبل الرب، فما أحياني وجاء بي إلى هنا، إلا لأُدفَن تحت الجبل الذي كلَّم عنده موسى، احفر في الأرض بعيدًا حتى لا تطالني ذئاب البرية، ولا يفضح موتي مطر السماء، ثُم ادفنّي. فإذا زال خوفك، وأمن قلبك، فائْتِ إليَّ وائْنِسْ وحشتي.

انتهت من وصيتها، ثُم صمتت، وغابت عن الوعي أيامًا، رتعَت الحمّى في جسدها، وأنا جالسٌ عند رأسها لا أغادرها، لم أبكِ، لكن دمي جرى في عروقي دموعًا. يأتي البدوي ويسألني: «كيف حال أُمك؟»، فأقول: «تنتظرُ يدَ الله». أصبُّ الماء على خرقة وأمسح وجهها الطيّب، فتفيق بين ساعة وساعة فتبتسم وتقول: «ما زلتُ هنا يا حسّون، أحبُّ وجهك يا ولدي»، ثُم تغيب. حين إفاقتها الأخيرة قالت: «افتح الصندوق، وهات الخنجر الذي فيه»، فجئت به. قالت:

- صنعتُه لأبيك وأهديته له، فأهداك الحبُّ لي، خذه ولا تفرِّط فيه. أخبرني يا بني، هل إذا متُّ دخلتُ الجنة أم النار؟

- لا أدري يا أُم.

- عبدتُ يَهْوَهْ، وعبَدَ أبوك اللّه، وكان واحدًا له اسمان، فلماذا أدخل النار؟

- لا أدري يا أُم.

- أيشفع لي أبوك إنْ كان اللّهُ ليس يَهْوَهْ؟

- يشفَع، فقَد أحبّ.

- وأنا أشفعُ له إنْ كان يَهْوَهْ ليس اللّه، فقد أحببت.

ثُم رفعت بصرها إلى السقف وقالت: «يا مَن في السماء إني أشهد لك وأعبدك، فلا تفرق بيني وبين مَن أُحبّ». ثُم لم تغمض عيونها، فأغمضتُهما بيدي.

حملتُها في عتمة الفجر على ظهرِ أتان، والبدويّ يقودني إلى جبل الرب حتى بلغته، فقلت له: «انتظر هنا ولا تتبعني». حملتُ أمي على يدي، أسيرُ بها بين شوك الشعاب، حتى بلغتُ جذرَ الجبل، بحثت عن موضع في الأرض يصلح أنْ يكون قبرًا، وجدت صخرة كبيرة خضراء، تقف وحيدة في الأرض الفسيحة الجدباء، فقلت في نفسي: «إنْ دفنتها عند تلك الصخرة المنفردة، فلن أضل عن المكان حين أعود إليها». أمسكت بالفأس التي أحضرتها معي، ما كان لها قدرة على نقب الأرض القاسية، فنظرت للسماء وقلتُ لصاحب عرشها: «أعِنّي لأستر أمي». فأعانني. صنعتُ حفرة تمتد ذراعين في أربعة أذرع، وحملت صفية فأودعتُها مسكنها الأخير، ونظرتُ إلى السماء مرة أخرى، وقلت له:

– هذه صفية، أمي. فلتكن مشيئتُك كيف تكون، لا أطلب منك شيئًا، ولا أضع شرطًا، لكن لا تُعذبها فقد شبعَتْ من العذاب، هذه صفية بيني وبينك، فاصنَع بي ما شئت، لكن هذه، لا.

أهلتُ عليها التراب، ركعتُ فوق القبر، ثُم سجدت، صبَبتُ قلبي على قبرها، وسرتُ في الكون فارغًا.

لم أخلِف لصفية أمرًا من قبل قط، وقد أوصتني بالرحيل إلى تونس، فأخلَفتُ موعدها. أأتركها تحت أقدام الجبل وحيدة، حتى لو كان جبل الرب؟! اتخذت قراري، أنا هنا معكِ يا صفية، لن أدعَك للموت وحيدة، فإنَّ لكِ ابنًا، اسمه حسّون. عندما رجعت إلى البدوي رقَّ لحالي، وسألني:

– ماذا ستصنع يا بنيّ؟

– سأسكُن الجبل.

– للجبال أهلها، ولستَ منهم، الجبل كالبحر، لا تُؤمن غدرته.

– هذا أدعى لأنْ أسكنه، لن أترك أمي وحدها.

– لن يفيدها جوارك، دَعها فهي ميتةٌ يا بنيّ.

– وأنا كذلك.

عندما رأى البدوي أني حزمتُ أمري، أرشدني إلى كهف في الجبل قريبًا من الأرض، وقال: «هذا الكهف آمن، لن يطالك فيه وحشٌ من ضواري الجبل، لكن الحيّات لا يردّها عنك إلا الله». ثُم تركني في الكهف وذهب ليحضر لي بعض المتاع، أعدّ لي فراشًا سميكًا، أسفله من جلد

الجمال وأعلاه من جلود الخراف، وأعطاني غطاءين ثقيلين، وأمدَّني بجرارٍ كبيرة للماء، تكفي المقتصِد شهرًا، وأعطاني سلَّتين واحدة جعلتُ فيها الخبز الجاف، والثانية لما يأتيني به من الطعام والتين المُجفف. اتفقت معه أنْ يَمُر كل شهر ليزودني بالماء والطعام، وأعطيته ثمن ما يأتيني به مُقدمًا لمدة عام.

كان الكهف ضيقًا، يمتد لسبعة أذرع، سقفه قريب فلا أستطيع أنْ أقيم عودي فيه، شعرتُ بالوحشة أول الأمر، وقهرتني الوحدة، فكنتُ أنزل إلى أسفل الجبل كل يوم، لأستأنس بقبر صفية، أصمت طويلًا أو أحكي لها عن حياة الجبل، أصف لها الكهف الذي أعيش فيه، وأحيانًا أشكو لها حنيني لأروى، مرة قلت لها: «لا أدري يا أُم هل أنا هنا لأكون بجوارك حقًّا أم لأكون قريبًا من ديار أروى؟»، فهبَّت نسمة طيّبة، ثُم نزل المطر لما ذكرت أروى، فتبسَّمت لقبر أمي وقلت: «مَن يدري؟ لعل». بعد بضعة أشهر تخليت عن زيارة قبرها كل يوم، وأصبحت أنزل إليها مرة كل ثلاثة أيام، ثُم أصبحت أزورها مرة كل أسبوع، وفي النهاية صرت لا أنزل لقبرها إلا مرة كل شهر كي ألقى البدوي الذي يأتيني بالماء والطعام، آخذ منه الزاد، ثُم أَمُرّ بقبرها سريعًا، وأعود إلى كهفي.

أحسن البدوي صنعًا عندما جاء بالزاد في إحدى المرات، وخلفه جرو صغير، قال لي: «اجعله معك يسليك». فقلت له: «ومن أين أطعمه في هذا الجبل؟». فقال: «لا يعجز إلا الإنسان، لن يطلب الكلب منك طعامه». أخذت الكلب، وصار صاحب غربتي، أحكي له عن صفية أعلى الجبل، كي لصفية عنه أسفلَه.

أصبح الكهف ضيقًا بعدما جاورني صاحبي الجديد الذي سميّته: «غلام»، كان كثير الحركة، يزعج نومي كلما غفوت، فقررت أنْ أبحث لنا عن كهف أكبر، ثلاثة أشهر وأنا أبحث في جنبات الجبل ولا أجد. أخذت غلام معي ليسلّيني في أثناء البحث، فأخذَ يجري في كل جهة كأنه يبحث معي، يمشي أمامي ويسبقني، وأنا أضحك منه عندما ينظر وراءه، كأنه يقول: «اتبعني». تبعته؛ فدلّني. دخل مسلَكًا ضيقًا يتعرج بين الصخور، وينتهي عند طاقةٍ تُفضي إلى كهف فسيح، يمتد طولًا لأكثر من سبعين ذراعًا، عريضٌ وله سقف مرتفع. أمسكت بغلام أحتضنه فرحًا بصنيعه، فأخذَ يلعق عنقي ووجهي، لم تكُن فرحتي بالكهف لأنه فسيح فقط، بل لأنه كفانا حاجتنا الأهم؛ إذ يتسرب في جداره الداخلي خيطٌ من الماء لا ينقطع، ويصبُّ بين صخرتين في شقٍّ يأخذ الماء إلى حيث لا أدري. أحببت الكهف كما لم أحب مسكنًا من قبل، ولا حتى بيت أبي في غرقة القليس.

سبع عشرة سنة اعتزلت فيها الناس والعالم، أهنأ بغربتي مع غلام، أخرج للشمس أول الصباح فأجلس صامتًا، وأحلم بالراحة الساذجة، أودُّ لو نسيت كل شيء وأعيش بلا ذاكرة ولا آمال. أقضي النهار كله أعبث بالحصى، وأكلم الصخور، ثُم أعود إلى الكهف آخر اليوم فلا أغادره. غلام كان أعلى مني هِمَّة، لم تصِبه عدوى الكسل والبلادة من صاحبه، يخرج معي في الصباح يبحث بين الصخور، فيصيد كل ما يتحرك أو يزحف، ليهرب من خبزي الجاف وحبوبي التي لا مذاق لها، أحيانًا يصيد بعض السحالي ومرات يقنص حيّة كبيرة، وإذا وجد أرنبًا جبليًّا صاده

وأتى به إليَّ، أشوي الصيد الثمين، فنأكل ونشرب، وقد امتلكت العالم كله، وأرنبًا مشويًّا.

صندوق أمي يحوي مع المال كتابين: مصحف أبي، وتوراتها. حفظتُ القرآن طفلًا، ثُم نسيته، قال لي جدّي: «احفظ». فحفظت، دون أنْ أفهم منه شيئًا، وعندما مات جدّي، نسيت. في وحدَة الجبل رجعت للقرآن، لكن بإرادتي، ليس لأجل جدّي الذي أرادني مُسلمًا، ولا لأجل أمي التي أرادت ألا أنسى دين أبي، فأصبحت أفهمه، لا أحفظه. أتدبر الآيات من شروق الشمس حتى الظهر، ثُم أدخل الكهف لأنام قليلًا، فإذا خفَّ لهيب الشمس خرجتُ لأقرأ في التوراة، حتى المغيب، أسمع صوت الله عربيًّا في الصباح وعبرانيًّا بعد الظهيرة، كلا الكتابين متشابهان، ومختلفان. القرآن عجيب يَهدأ صوته حينًا ويهدر أحيانًا، مرة يأتي الصوت من بعيد، يُكلم إنسانًا غيري، لا أعرفه، ومرة يكون الصوت قريبًا، يُحدّثني أنا، أنا حسّون، يخبرني عن خيانات لا تنتهي لأُمة غليظة الرقاب، حتى أبكي لأجل أمي ومُعلمي داوود، فتأتي آية تحنو على قلبي وتشفق على حزني، فتقول لي: «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». فأفرح بها، وأودُ لو أطير من فوق الجبل إلى قبر مُعلمي، لأقول له أنتَ بخير، وأنزل إلى قبر أمي لأقول لها، لا تخافي، ليسوا سواء، أنتِ من الصالحين يا أُم. أما التوراةُ فحاسمة، لا تلينُ كبرياؤها، أرى آياتها وهي تلعن كل

الأمم، وتأمر بإهلاكهم حرثًا ونسلًا، فتصفعُ قسوة الآيات عيني، وحينًا أسمع في الآيات عزف الرحمة والحب، فأشاهد وجه الرب الطيب في رؤى «إشعياء» المبارك، وأشعر بمحنتي في صوت «أيوب» الحزين، كأنَّ أيوب يعزيني وهو يتمنى لو لم تلده أُمه، كم كان مثلي، حتى لا أدري وأنا أتلو التوراة أكان هذا صوته أم صوتي: «بَعْدَ هَذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وسَبَّ يَوْمَهُ، وأَخَذَ أَيُّوبُ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ: لَيْتَهُ هَلَكَ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ، واللَّيْلُ الَّذِي قَالَ: قَدْ حُبِلَ بِرَجُلٍ. لِيَكُنْ ذَلِكَ الْيَوْمُ ظَلَامًا. لَا يَعْتَنِ بِهِ اللهُ مِنْ فَوْقُ، ولا يُشرِقْ عَلَيْهِ نَهَارٌ.... لأَنَّهُ لَمْ يُغلِقْ أبوَابَ بَطنِ أُمِّي، وَلَمْ يَسْتُرِ الشَّقَاوَةَ عَنْ عَيْنَيَّ». تُفتِّتُ الآيات قلبي وأبكي، فأحس يد الرب على وجهي تمسح دموعي وتواسي غربتي.